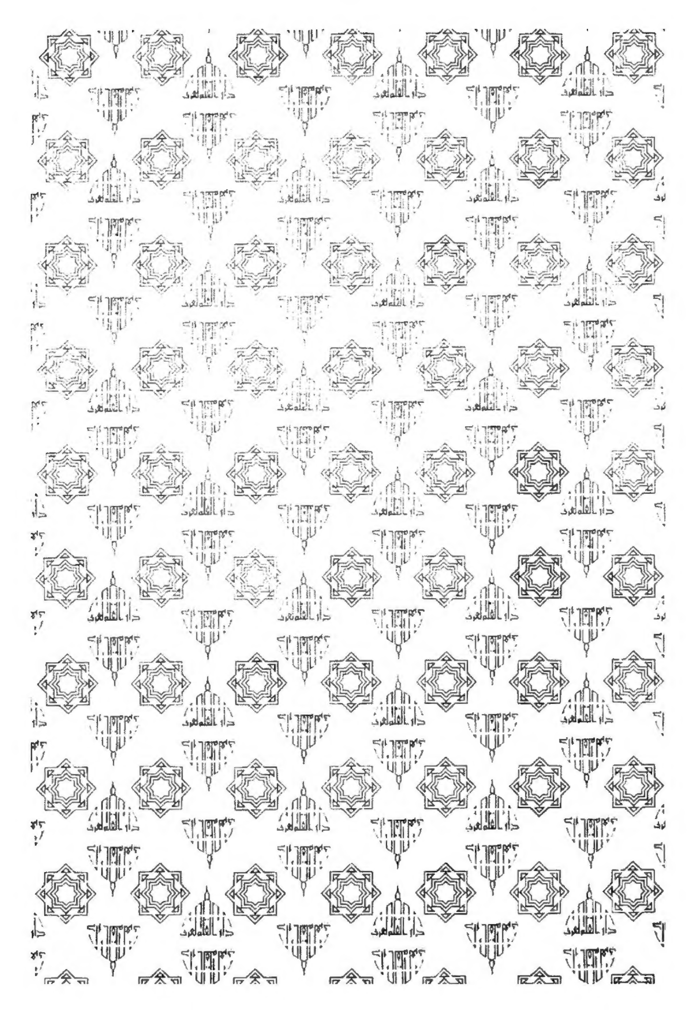
معارك عربية إسلامية خالدة

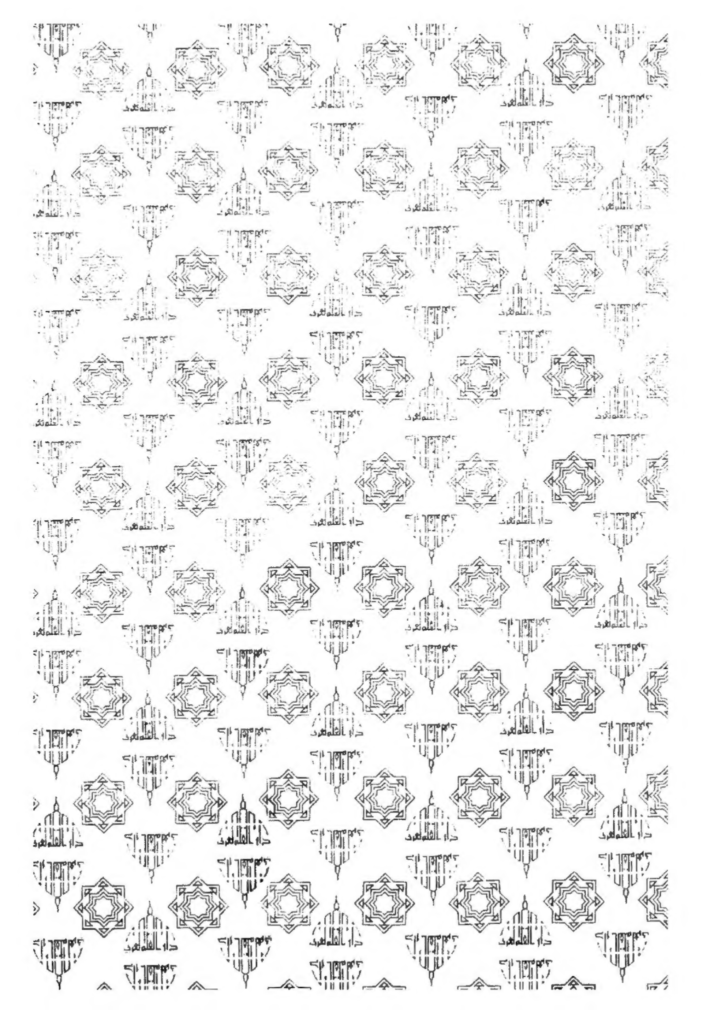
١ - معركة ذي قار

٢ - معركة بدر



دار القلم العربي





معارك عربية خالدة

١

معركة ذي قار

اعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتـف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرفِ الخلق أجمعين ، سيدنا محمد ﷺ سيدِ الأولين والآخرين .

أما بعد :

فهذا لقاءٌ جديدٌ مع سلسلة جديدةٍ تتحدّث عن المعاركِ الحربيةِ الخالدةِ التي خاضتْها أمتُنا العربيةُ والإسلاميةُ عبرَ تاريخها المجيدِ في مواجهةِ قوى البغي والشرّ والعدوانِ ، وضربَتْ أروعَ الأمثلةِ في التضحيةِ والفداء ، والنُّبْل والوفاء ، ولبثتْ شامخةً مدافعةً عن أمنِها ووجودِها ، ودينِها وعقيدتِها .

لذلكَ رأتْ إدارةُ دارِ القلمِ العربي بحلبَ برئاسةِ الأستاذِ علاء الدين الرفاعي حفظه الله تعالى في هذه

السلسلة المـادةَ الخِصْبـةَ ، والفرصـةَ المناسـبةَ لتلتقـيَ مـع قرّائها الأعـزّاء للعـودةِ بهـم إلى إحيـاء أمجـادِ الآبـاء والأجدادِ لعلّنا نستلهمُ منهـمُ العِظَـةَ والعِبرةَ ، ونقتـدي بهـم في الثبـات على العقيـدة الصحيحـة ، والتمسُّـكِ بالدينِ الحـقِّ ، ﴿ **وقُـلِ اعملـوا فسـيرى ا للهُ عملَكـم ورسـولُه والمؤمنـونَ وسـتُردُّونَ إلى عـالِمِ الغيـبِ والشـهادةِ فينبِّئُكـم بمـا كنتُـم تعملـونَ** ﴾ صـدقَ ا للهُ العظيـم ، وصلّـى ا للهُ علـى سيدِنا محمـد وعلـى آلـه وصحبه وسلَّم .

حالةُ العرب قبلَ الإسلام

كان العربُ قبلَ الإسلامِ قبائلَ متفرِّقةً ومتباغضةً ومتناحرة ، فكانتِ القبيلةُ القويةُ تُغِيرُ على القبيلةِ الضعيفةِ فتقتلُ رجالَها ، وتَسبي نساءَها ، وتخطَفُ أطفالَها لتبيعَهم أَرِقّاءَ في سوق النِّخاسة .

لقد كانت إغاراتُ النَّهبِ والسلبِ تشكِّلُ عاملاً من عوامل تقويضِ المجتمع العربي ، وتحويله إلى ركامٍ فقدَ نشاطَه وحيويتَه ، وكأنه لا روحَ فيه ولا حياة .

لقد استفحلَ مرضُ الجهلِ في هذا المجتمع الحائر المهتاجِ ، وأصبحَ دائبَ النَّخرِ فيه ، حتى أحبَّ بعضُهم الإغارة على بعض ، لدرجةِ أنَّهم إنِ افتقدوا عدوّاً أو خصماً يُغيرونَ عليه ، أو يقومون بمهاجمتِهِ ، أغارَ بعضُهم على بعضٍ حتى ولو كانوا من أهليهم وذوي قراباتِهم ، وذلك أبغضُ وأشنأُ ما يُصابُ به المجتمعُ .

وقد عبّر شاعرُهم القطاميُّ عن ذلك بقوله :

وكنَّ إذا أغرْنَ على قبيلٍ   فأعوزهنَّ نهبٌ حيثُ كانا

إلى أن قال :

وأحياناً على بَكْرٍ أخينا   إذا ما لم نجدْ إلاّ أخانا

وبسبب هذا الجهل والتخلُّف، والتناحر والتفرُّق، أضحى الإنسانُ العربيُّ مَهِيْضَ الجناح ، ضعيفَ الشخصية ، فاقدَ الهُوِيَّة ، تَبعياً مهزولاً مطموعاً به ، فمنهم مَنْ كان تابعاً للفُرْس ، ومنهم مَنْ كان تابعاً للروم ، ومنهم من كانَ تابعاً للأحباش ، يوالونَهم ويخضعونَ لهم ، ويأتمرونَ بأمرهم ، ويقدِّمونَ لهمُ الولاءَ والطاعةَ ، ويُنفِّذونَ لهم ما يريدون ، وكأنَّ هؤلاءِ سادةٌ والعربُ عبيدٌ لهم .

ولقد بلغَ بهمُ الضَّعفُ والخنوعُ ، أنَّ الفُرْسَ والرومَ كانوا يتحكَّمونَ في مصائرِهم ، فمَنْ رأوا منه

ولاءً وطاعةً وخدمةً توَّجوه ملكاً على قومه ، وكان تابعاً لهم ، وعاملاً من عُمَّالهم ، يأتمرُ بأمرهم ، وينتهي بنهيهم ، فإذا ما تمرَّدَ عليهم وخالفَ أوامرَهم تخلّصوا منه ، وعزلوه بالقتل ، ثم ولّوا مكانَه مَنْ رأوه مخلصاً ومتفانياً في خدمتهم .

وفي الصفحاتِ القليلةِ التاليةِ سنلقي الضوءَ على واقع العرب وتبعيَّتِهم للأمم الأخرى قبل الإسلام .

أولاً ـ الغساسنةُ والرومُ :

قال ابنُ خلدون في تاريخه : أوَّلُ مُلْكٍ كان للعرب بالشام ـ فيما علمناه ـ للعمالقة ثم لبني إِرَمَ بنِ سام ، فكانَ بنو إرمَ يومئذٍ في نواحي الشام والعراق ، وقد ذُكروا في التوراة ، وكان لهم معَ ملوكِ الطوائفِ حروبٌ ، وكانَ آخرَهم مُلْكاً الزباءُ بنتُ عمرِو بنِ

السميدع ، وكانتْ قضاعةُ مجاورينَ لهم في ديارهم بالجزيرة ، وغلبوا العمالقة ، ولَمّا هلكتِ الزباءُ ملَك أمرَ العربِ تنوخُ من بطونِ قضاعة ، فكانوا مُمَلَّكينَ من قِبَلِ الروم ، ثم تلاشى أمرُ تنوخَ واضمحلَّ ، وغلبتْ عليهم سُلَيحُ من بطون قضاعة ثم الضجاعم فتنصّروا ، وملّكتْهمُ الرومُ على العربِ ، وأقاموا على ذلك مدّةً ، وكانَ نزولُهم ببلاد مؤاب من أرضِ البلقاء .[1]

وذكرَ أبو الفداء : أن الغساسنةَ كانوا عُمّالاً على عرب الشام ، وأصلُ غسانَ من اليمن من بني الأزد تفرّقوا من اليمن بسيل العَرِمِ ، ونزلوا على ماءٍ بالشامِ يقالُ له : غسانُ ، فنُسِبوا إليه ، وكانَ قبلَهم بالشام عربٌ يقالُ لهم : الضجاعمة من سُلَيح ، فأخرجتْ

(1) تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ .

غسانُ سُلَيحاً عـن ديـارهم ، وقتلـوا ملوكَهـم وصـاروا موضعَهم .[1]

قـال المسعوديُّ : وكـانتْ ديـارُ ملـوكِ غسـانَ باليرموكِ والجولانِ وغيرِهما من غوطةِ دمشقَ وأعمالها، ومنهم مَنْ نزلَ الأردُنَّ من أرضِ الشام .[2]

ثانياً ـ الفرسُ وملوكُ الحِيرة :

ذكرَ الباحثُ عمـر رضـا كحّالـة في كتابـهِ العـالم الإسلامي : أُسِّستْ إمارةُ الحـيرةِ عـامَ ٢٤٠ م ، ووُلِّـيَ عليها عمرُو بنُ عديّ ، ورغبتِ الفُرْسُ بإنشـائها حـذراً من إغارة عـربِ الباديـةِ وغـيرِهم مِمَّـنْ جـاورَهم علـى أملاكِها ، فجعلوا هذه الإمارةَ بمثابةِ حاميةٍ تحميهـم مـن

---

(1) تاريخ أبي الفداء ، ج ١ .

(2) مروج الذهب للمسعودي ، ج ١ .

إغارةِ الأعداء ، وكانَ النظامُ المتَّبعُ بينَ فارسَ وعربِ الحِيرة أنَّ هؤلاء يُقَدِّمونَ الطاعةَ لِمَلِكِ فارسَ وهو يولِّي عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يَحْمُوا فارسَ من كلِّ مُغيرٍ من نواحيهم ، والفرسُ مقابلَ ذلكَ يُعْفُونَهم من دفعِ الإتاوةِ ، وكانَ نظامُ الفرسِ إذ ذاك نظاماً إقطاعياً ، يكادُ يستقلُّ كلُّ والٍ بأمرِ مقاطعتهِ ويستمرُّ والياً عليها مدى حياتهِ غالباً ، ويراعي الملكُ رغبةَ المقاطعةِ فيمنْ يُولِّي عليها ، على عكسِ النظامِ الروماني فقد كان نظاماً مركزياً .(١)

وقال الطبريُّ : وعمرُو بنُ عدي أولُ مَنِ اتَّخذَ الحيرةَ منزلاً من ملوك العرب ، وأولُ مَنْ تجدُهُ أهلُ الحيرةِ في كتبِهم من ملوك العرب بالعراق وإليه يُنسَبون،

---

(١) كتاب العالم الإسلامي .

وهم ملوك آلِ نصرٍ ، ولم يزلْ عمرُو بنُ عديّ ملكاً حتى مات وهو ابنُ مائةٍ وعشرينَ سنةً مستبدّاً منفرداً يغزوهم ويغنمُ ، وتَفِدُ عليه الوفودُ ولا يَدينُ للملوك الطوائفِ ، ولا يَدينونَ له ، حتى قدمَ أردشيرُ بنُ بابكَ في أهلِ فارسَ .

وقال : وإنما كانوا طوائفَ على المخاليفِ يُغيرُ كلُّ واحدٍ على صاحبه إذا استغفلَه ويرجعُ خوفَ الطلب ، حتى كان عمرُو بنُ عدي فاتّصَلَ له ولعَقِبهِ المُلْكُ على مَنْ كان بنواحي العراق وباديةِ الحجازِ بالعرب ، فاستعملهُ ملوكُ فارسَ على ذلك إلى آخرِ أمرِهم ، وكانَ أمرُ آلِ نصرٍ هؤلاءِ ، ومَنْ كان من ولاةِ الفرسِ وعُمّالِهم على العربِ معروفاً مُثْبَتاً عندهم في كنائسِهم وأشعارهم .(١)

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ .

ثالثاً ـ استيلاءُ الحبشةِ على اليمن :

ذكرَ الكلبيُّ في سببِ غزوِ ذي نواسٍ أهلَ نجرانَ : أنَّ يهودياً كان بنجرانَ ، فعدا أهلُها على ابنينِ له فقتلوهما ظلماً ، فرفعَ أمرَهُ إلى ذي نواسٍ وتوسَّلَ إليه باليهودية ، واستنصرهُ على أهلِ نجرانَ وهم نصارى ، فحَمِيَ له ولدينِهِ ، ولَمّا أَفْلتَ دوسٌ ذو ثعلبانَ فقدمَ على قيصرَ صاحبِ الروم يستنصرُه على ذي نواسٍ ، وأعلمَهُ بما ركبَ منهم ، وأراه الإنجيلَ وقد احترقَ بعضُه في النار ، فكتبَ له إلى النجاشيِّ يأمرُه بنصرِهِ وطلبِ ثأرِه ، وأمَّرَ عليهم أرياطاً ـ رجلاً منهم ـ وعَهِدَ إليه بقتلِهم وسبيهم وخرابِ بلادِهم .

فخرجَ أرياطُ لذلك ومعه أبرهةُ الأشرمُ ، وبعثَ معه النجاشيُّ سبعينَ ألفاً من الحبشة ، فركبوا البحرَ ونزلوا ساحلَ اليمن ، وجمعَ ذو نواسٍ حِمْيَرَ ومَنْ أطاعهُ

من أهلِ اليمنِ على اختلافٍ وافتراقٍ في الأهواء ، فلم يكنْ كبيرُ حربٍ وانهزموا ، ووطِئَ أرياطُ قائدُ الحبشةِ اليمنَ بالحبشة ، وبعثَ إلى النجاشيّ بثلُثِ السبي كما عَهِدَ له ، ثم أقامَ بها فضبطَها وأذلَّ رِجالاتِ حِمْيَرَ ، وهدمَ حصونَ الملكِ بها مثالَ سلحيقَ وسونَ وغمدانَ .[1]

رابعاً ـ انتزاعُ اليمنِ من الحبشة :

فشِلَ أبرهةُ الحبشيُّ بهدمِ الكعبةِ ورجعَ عنها يجرُّ أذيالَ الخيبةِ ، ثم ماتَ متأثّراً من الخُذلانِ الذي أصابه في مكة .

فملكَ مكانَه ابنُه يكسومُ ، وبه كان يكنى ،

---

[1] تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ .

واستفحلَ ملكُه وأذلَّ حِمْيَرَ وقبائلَ اليمن ، ووطِئَتْهمُ الحبشةُ فقتلوا رجالَهم ، ونكحوا نساءَهم ، واستخدموا أبناءَهم ، ثم هلَكَ يكسومُ بنُ أبرهةَ ، فملكَ مكانَه أخوه مسروقٌ ، وساءتْ سيرتُه ، وكثُرَ عَسَفُ الحبشة باليمن، فخرج ابنُ ذي يزنَ واستجاشَ عليهم بكسرى، وقدمَ اليمنَ بعساكرِ من الفرس، وقتلَ مسروقاً، وذهبَ أمرُ الحبشةِ بعدَ أن توارثَ مُلْكَ اليمنِ منهم أربعةٌ في اثنتين وسبعينَ سنةً ، أولُهم أرياطُ ، ثم أبرهةُ ، ثم ابنُه يكسومُ ، ثم أخوه مسروقُ بنُ أبرهةَ .

قال ابن خلدونَ : ولَمّا طالَ البلاءُ من الحبشةِ على أهلِ اليمنِ خرجَ سيفُ بنُ ذي يزنَ الحِمْيَريُّ وقدمَ على قيصرَ ملكِ الروم وشكا إليه أمرَ الحبشةِ ، وطلبَ أنْ يُخرِجَهم ويبعثَ على اليمن مَنْ شاءَ من الروم ، فلم يُسْعِفْهُ ، وكان على دينِ النصارى ، فرجعَ إلى كسرى

وقدمَ الحيرة على النعمان بن المنذر عاملِ فارسَ على الحيرةِ وما يليها من أرض العرب ، فشكا إليهِ واستمهلَهُ النعمانُ إلى حين وفادتهِ على كسرى ، وأوفدَ معه وسألَه النصرَ على الحبشةِ وأن يكونَ مُلْكُ اليمنِ له .

فقالَ : بَعُدَتْ أرضُك عن أرضنا ، أو هي قليلةُ الخيرِ ، إنما هي شاءٌ وبعيرٌ ولا حاجةَ لنا بذلك ، ثم كساه وأجازَه ، فنثرَ دنانيرَ الإجازةِ وأنهبَها الناسَ ، فأنكرَ عليه كسرى ذلك ، فقال : جبالُ أرضي ذهبٌ وفضةٌ وإنما جئت لتمنعني من الظلم ، فرغِبَ كسرى في ذلك وأمهله للنظر في أمره ، وشاورَ أهلَ دولتهِ ، فقالوا : في سجونِكَ رجالٌ حَبَسْتَهم للقتل ، ابعثْهم معه فإن هلَكوا كان الذي أردتَ بهم ، وإن مَلَكوا كان مُلْكاً ازددتَه إلى ملكك .

وكانوا ثمانمائة ، وقدَّم عليهم أفضلَهم وأعظمَهم بيتاً ، وأكبرَهم نَسَباً ، وكان وَهْرَزَ الديلميّ ، فأمَّرَهُ على أصحابه ، وركبوا البحرَ ثمانِ سفائنَ فغرقتْ منها سفينتان وخَلُصتْ ستٌّ إلى ساحلِ عدنَ .

فلمّا نزلوا بأرض اليمنِ قال وهْرَزُ لسيفٍ : ما عندك ..؟

قال : ما شئتَ من قوسٍ عربيةٍ ، ورجلي مع رجلك حتى نظفرَ أو نموتَ ، قال : أنصفتَ ، وجمعَ سيفُ بنُ ذي يزنَ مَنِ استطاعَ من قومه ، وسارَ إليه مسروقُ بنُ أبرهةَ في مائةِ ألفٍ من الحبشةِ وأوباشِ اليمنِ ، فتواقفوا للحرب ، وأمرَ وهْرَزُ ابنَهُ أن يُناوشَهم القتالَ ، فقتلوه ، فحملَ القومُ عليهم ، وانهزمَ الحبشةُ في كلِّ وجهٍ ، وأقبلَ وهزرُ إلى صنعاءَ ، ودخل ناصباً رايتَه فملَكَ اليمنَ ، ، ونفى عنها الحبشةَ ، وكتبَ

بذلك إلى كسرى ، وبعثَ إليه بالأموالِ ، فكتبَ إليه كسرى أن يُملِّكَ سيفَ بنَ ذي يزنَ على اليمنِ على فريضةٍ يُؤَدِّيها كلَّ عامٍ ، ففعلَ وانصرفَ وهزرُ إلى كسرى ، وملكَ سيفٌ اليمنَ ، وكانَ أبوه من ملوكها، وخَلَفَ وهزرُ نائباً على اليمنِ في جماعةٍ من الفرس ضمَّهم إليه ، وأنزله بصنعاءَ ، وانفردَ ابنُ ذي يزنَ بسلطانه ونزلَ قصرَ الملكِ وهو رأسُ غمدان .[1]

مقتلُ سيفِ بنِ ذي يزنَ :

قالَ ابنُ إسحاقَ : ولَمّا نصرفَ وهزرُ إلى كسرى غزا سيفٌ على الحبشةِ وجعل يقتلُ ويبقرُ بطونَ النساء حتى إذا لم يبقَ إلاّ القليلُ جعلَهم خولاً[2]، واتخذَ منهم

---

[1] تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

[2] الخول : الخدم .

طوابيرَ يَسْعونَ بين يديه بالحِراب ، وعَظُمَ خوفُهم منه ، فخرجَ يوماً وهم يسعَونَ بين يديه فلمّا توسَّطَهم وقد انفردوا به عن الناسِ رَمَوهُ بالحِرابِ فقتلوه .[1]

---

[1] تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

خطرُ العربِ على الفرسِ والروم

لم يَكُنِ العربُ جميعاً تابعينَ للفرس والروم ، أو خاضعينَ لأمرهم ، أو عُمّالاً لهم ، بل لقد كان كثيرٌ منهم يثورونَ عليهم ويضايقونَهم ، ويتعرَّضونَ لقوافلهم بالإغارةِ والنَّهبِ ، بل ويُشَكِّلونَ خطراً حقيقياً على وجودِهم ومصالحهم في الأرضِ العربية ، حتى يئسوا منهم ، فعَمَدوا إلى موادعتِهم ومسالمتِهم لاتِّقاءِ شرِّهم .

يقول الباحثُ عمر رضا كحالة في كتابه العالم الإسلامي :

(وكانتِ العراقُ وفارسُ يحكمُهما ملوكُ الطوائفِ بعد الإسكندرِ ، يستبدُّ كلٌّ منهم بقسمٍ منها يشتغلونَ بذلك عن مناوأةِ الرومِ أعدائِهمُ القدماءِ ، حتى إذا نشأتِ الدولةُ الساسانيةُ في أولِ القرنِ الثالثِ الميلادي وجمعتْ كلمةَ الفرس تحت لوائها أصبحَ الرومُ يخافونها

على بلادهم لِمَا بينهما من المنافسةِ القديمة ، فازدادت رغبتُهم في تقريبِ العربِ لا لاتّقاءِ شرِّهم فقط بل للاستعانةِ بهم على أولئكَ المنافسينَ .

واتفقَ نزوحُ الغسانيين نحوَ الشمالِ ـ كما تقدم ـ وقد نزلوا البلقاءَ وفيها الضجاعمةُ وغيرُهم من قبائل العربِ ، وتنازعوا على المقامِ هناكَ ، وتنافسوا في النفوذ على أهلِ الباديةِ ، فظهر الغسانيون ، فلمّا احتاج الرومُ إلى نُصرتِهم استنصروهم وقرّبوهم ، فتنصّروا بتوالي القرونِ وأصبح لهم شأنٌ في حروبِ الرومِ والفرس)[1].

---

(1) العالم الإسلامي لعمر كحالة .

مولدُ رسولِ الله ﷺ

وآياتٌ ظهرتْ تُنْبِئُ بزوالِ ملْكِ الفرسِ

قال الطبري : لَمّا كانتْ ليلةُ ولدَ فيها رسولُ الله ﷺ ارْتَجَسَ[1] إيوانُ كسرى ، وسقطتْ منه أربعَ عشرةَ شرفةً ، وخمَدَتْ نارُ فارسَ ، ولم تخمدْ قبلَ ذلك بألف عامٍ ، وغاضَتْ بحيرةُ ساوةَ ، ورأى الموبذانُ إبلاً صِعاباً تقودُ خيلاً عِراباً[2]، وقد قطعتْ دجلةَ وانتشرتْ في بلادها ، فلمَّا أصبحَ كسرى أفزعَهُ ما رأى فصبرَ تشجُّعاً ، ثم رأى ألاّ يكتمُ ذلك عن وزرائِهِ ومرازبتِهِ ، فلبسَ تاجَهُ وقعدَ على سريرِهِ وجمعهم إليه ، فلمّا اجتمعوا إليه أخبرهم بالذي بعث إليهم فيه ودعاهم ،

---

(1) ارتجسَ : اضطرب وتحرّك حركةً سُمِعَ لها صوتٌ .

(2) خيلٌ عِرابٌ : خلافُ البراذين ، والواحد عربي .

فبينا هم كذلك إذ وردَ عليه كتابٌ بخمود النـارِ فـازدادَ غمّاً إلى غمِّه .

فقالَ الموبذانُ : وأنا ـ أصلحَ اللهُ الملكَ ـ قد رأيتُ في هذه الليلة ... وقصّ عليه الرؤيا في الإبل .

فقالَ : أيُّ شيءٍ يكونُ هذا يا موبذان ؟ ـــ وكـان أعلمَهم عند نفسه بذلك ـ .

فقال : حادثٌ يكونُ عنـدَ العرب ، فكتـبَ عنـد ذلـك : (مـن كسـرى ملـكِ الملـوكِ إلى النعمـانِ بـنِ المنذر ، أمـا بعـدُ : فوجِّـهْ إليَّ رجـلاً عالمـاً بمـا أُريـدُ أن أسألَه عنه) .

فوجَّه إليه عبدَ المسيحِ بنَ عمرِو بنِ حيانَ بنِ بقيلـةَ الغسّاني ، فلمّا قدم عليه قال له : أعندكَ علمٌ بمـا أُريـدُ أن أسألَكَ عنه ؟

قال : لِيُخبرْني الملكُ ، فإنْ كان عندي منه علـمٌ ،

وإلاّ أخبرتُه بمَنْ يعلمُهُ له ، فأخبرَهُ بما رأى .

فقال : عِلْمُ ذلك عند خالٍ لي يسكنُ مشارفَ الشام يقالُ له : سَطيحٌ .

قال : فأْتِهِ فاسألْهُ عمّا سألتُك وأْتِني بجوابه .

فركبَ عبدُ المسيح راحلتَه حتى قَدمَ على سَطيحٍ وقد أشفى على الموت ، فسلَّمَ عليه وحيّاه ، فلم يَحِرْ سطيحٌ جواباً ، فأنشأ عبدُ المسيح يقولُ :

أصمُّ أم يسمعُ غطريفُ اليمنْ ... يا فاصلَ الخطة أعيَتْ مَنْ ومَنْ
أمْ فازَ فازْ لَمَّ به شأوُ العننْ ... أتاكَ شيخُ الحيِّ من آلِ سَنَنْ
وأمُّه من آلِ ذئبِ بن حجَنْ ... أزرقُ مُمهى النابِ صرّارُ الأُذُنْ
أبيضُ فضفاضُ الرداء والبَدَنْ ... رسولُ قيلِ العجمِ يسري للوسَنْ
يجوبُ بي الأرضَ علنداةٌ شزَنْ ... ترفعُني وَجنٌ وتهوي بي وجَنْ
لا يرهبُ الرعدَ ولا ريبَ الزمنْ ... حتى أتى عاري الجآجي والقَطَنْ
تلُفُّهُ في الريح بوغاءِ الدِّمَنْ ... كأنّما حثْحثَ من حضني ثكنْ

فلمَّا سَمِعَ سطيحُ شعرَه رفعَ رأسَه وقال :

عبدُ المسيح على جملٍ يسبح ، إلى سطيحْ وقد أوفى على الضريح .

بعثك مَلِكُ بني ساسانَ ، لارتجاسِ الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعاباً تقودُ خيلاً عِراباً ، قد قطعتْ دجلةَ وانتشرتْ في بلادها .

يا عبدَ المسيح ، إذا كثرتْ التلاوة ، وبُعثَ صاحبُ الهراوة ، وفاض وادي السماوة ، وغاضتْ بحيرةُ ساوة ، وخمدتْ نارُ فارسَ ، فليستِ الشامُ لسطيحٍ شاماً ، يملكُ منهم ملوكٌ وملكاتٌ ، على عددِ الشرفات ، وكلُّ ما هو آتٍ آت .

ثم قضى سطيح مكانَهُ ، فقام عبدُ المسيح إلى رحلِهِ وهو يقول :

شَمِّرْ فإنك ماضي الهمِّ شِمِّيرُ لا يفزعنَّك تفريقٌ وتغييرُ
إن يكُ مُلكُ بني ساسانَ أفرَطَهم فإنَّ ذا الدهرَ أطوارٌ دهاريرُ

فربَّمـا ربَّمـا أضـحَـوا بـمـنـزلــةٍ تهابُ صـولتَها الأُسْـدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصرحِ مِهرانٌ وإخوتُه والـهـرمزانُ وسـابـورٌ وسـابـورُ
والناسُ أولادُ علاّتٍ فمن علموا أنْ قد أقلَّ فمهجورٌ ومـحقـورُ
وهم بنو الأم لَمّا أنْ رأوا نشـبـاً فذاك بالغيب محفوظٌ ومنصـورُ
والخيرُ والشرُّ مقرونـان في قـرنٍ فالخير متَّبعٌ والشرُّ محـذورُ

فلمّا قدمَ عبدُ المسيح على كِسْرى أخبره بقولِ سطيحٍ ، فقال : إلى أنْ يملكَ منا أربعةَ عشـرَ ملكاً قـد كانتْ أمورٌ .

فملكَ منهم عشرةٌ أربعَ سنين ، وملكَ الباقونَ إلى ملكِ عثمانَ بنِ عفّانَ .[1]

ولقـدْ جمـعَ البوصيريُّ رحمـه الله تعالى ذلـكَ في قصيدتِهِ (بردة المديح) ، فقال :

أبـانَ مولـدُهُ عـن طيبِ عنصـرِهِ يـا طِيبَ مـبـتـدَإٍ منـهُ ومُختَتَـمِ
يومٌ تفرَّسَ فيـهِ الفُـرْسُ أنّهـمُ قد أُنذِروا بـحـلولِ البؤسِ والنِّقَـمِ

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

وباتَ إيوانُ كسرى وهو منصَدِعٌ كشَمْلِ أصحابِ كسرى غيرَ ملتئمِ

والنّارُ خامدةُ الأنفاسِ من أسَفٍ عليه والنّهرُ ساحي العين من سَدَمِ

وساءَ ساوةَ أنْ غاضتْ بُحيرتُها وردُّ واردُها بالغيظِ حينَ ظمي

كأنَّ بالنّارِ ما بالماءِ من بلَلٍ حُزناً وبالماءِ ما بالنارِ من ضَرَمِ

والجنُّ تهتفُ والأنوارُ ساطعةٌ والحقُّ يظهرُ من معنًى ومن كَلِمِ

عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البشائرِ لم تُسْمَعْ وبارقةُ الإنذارِ لم تُشَمِ

من بعدِ ما أخبرَ الأقوامَ كاهنُهم بأنَّ دينَهمُ المعْوَجَّ لم يَقُمِ

وبعدَ ما عاينوا في الأُفْقِ من شُهُبٍ مُنْقَضَّةٍ وَفقَ ما في الأرضِ من صَنَمِ

حتى غدا عن طريقِ الوحيِ منهزِمٌ من الشياطينِ يقفو إثْرَ منهزِمِ

كأنّهم هرباً أبطالُ أبرهةٍ أو عسكرٌ بالحصى من راحتيه رُمي

نبذاً به بعدَ تسبيحٍ ببطنهما نبذَ المسبِّحِ من أحشاءِ ملتقمِ

بعثةُ النبيِّ ﷺ وإصرارُ كسرى على الكفر

روى الطبريُّ عن هشامِ بنِ محمدٍ الكلبيِّ فقال : في سنةِ عشرينَ من مُلْكِ كسرى أبرويز بعثَ اللهُ محمداً ﷺ ، فأقامَ بمكةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وهاجرَ في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين من ملكهِ إلى المدينة .

ثم روى حديثاً مطوَّلاً بسندهِ عن أبي سلمةَ بنِ عبد الرحمنِ بنِ عوفٍ قال : بعثَ اللهُ إلى كسرى ملَكاً وهو في بيتِ إيوانهِ الذي لا يُدْخَلُ عليه فيه ، فلم يَرُعْه إلاّ به قائماً على رأسهِ في يدِهِ عصا ، بالهاجرةِ في ساعتهِ التي كان يقيلُ فيها ، فقال : يا كسرى ، أتسلمُ أو أكسرُ هذه العصا ؟

فقال : بهل .. بهل .. فانصرفَ عنه ، ثم دعا أحراسَهُ وحُجَّابه فتغيَّظَ عليهم ، وقال : مَنْ أدخلَ هذا الرجلَ عليَّ ؟

فقالوا : ما دخلَ عليكَ أحدٌ ولا رأيناه !

حتى إذا كان العامُ القابلُ أتاه في الساعةِ التي أتاه فيها ، فقال له : أتُسْلِمُ أو أكسرُ هذه العصا ؟

فقال : بهِل ... بهِل ... ثلاثاً ، فخرجَ عنه ، فدعا كسرى حُجّابَه وحُرّاسَه وبوّابيه فتغيّظَ عليهم ، وقال لهم كما قال أولَ مرّةٍ ، فقالوا : ما رأينا أحداً دخل .

حتى إذا كانَ في العامِ الثالثِ أتاهُ في الساعةِ التي جاءهُ فيها ، فقال له كما قال : أتُسلمُ أو أكسرُ هذه العصا ؟

فقال : بهِل .. بهِل ..

قال : فكسرَ العصا ، ثم خرج .. فلم يكنْ إلاّ تهدُّرُ ملكِهِ ، وانبعاثُ ابنِهِ والفرسِ حتى قتلوه .[1]

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

وذكرَ حديثاً آخرَ عن الحسنِ البصريِّ : « أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قالوا : يا رسولَ الله ، ما حُجّةُ الله على كسرى فيك ؟

قال : بعثَ إليه ملَكاً فأخرجَ يدَه من سورِ جدارِ بيته الذي هو فيه يتلألأُ نوراً ، فلمّا رآه فزِعَ ، فقال : لم ترعْ يا كسرى ، إنّ الله قد بعثَ رسولاً ، وأنزلَ عليه كتاباً ، فاتَّبِعْهُ تَسلَمْ دنياكَ وآخرتك .

قال : سأنظرُ »[1].

---

(1) المصدر السابق ج ٢ .

حربُ فارسَ والرومِ

ونزولُ قولهِ تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ .. ﴾

روى الطبريُّ بسندهِ عن عكرمةَ : أنَّ الرومَ وفارسَ اقتتلوا في أدنى الأرضِ ـ قال : وأدنى الأرضِ يومئذٍ أذرعاتٌ بها التقوا ـ فهُزمتِ الرُّومُ ، فبلغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه وهم بمكةَ ، فشقَّ ذلكَ عليهم ، وكان النبيُّ ﷺ يكرهُ أنْ يظهرَ الأُمِّيونَ من المجوسِ على أهلِ الكتابِ من الرومِ .

وفرِحَ الكفارُ بمكةَ وشَمِتوا ، فلَقُوا أصحابَ النبي ﷺ فقالوا : إنكم أهلُ كتابٍ ، والنّصارى أهلُ كتابٍ ، ونحنُ أُمِّيونَ ، وقد ظهرَ إخوانُنا من أهل فارسَ على إخوانكم من أهلِ الكتابِ ، وإنكم إنْ قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ **الم * غُلِبَتِ**

الرومُ ﴾ إلى ﴿ وهم عنِ الآخرةِ هم غافلونَ ﴾ فخرجَ أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ إلى الكفّارِ فقال : أَفَرِحتُم بظهورِ إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يُقِرَّنَّ الله أعينَكم ، فوالله ليظهرنَّ الرومُ على فارسَ ، أخبرَنا بذلكَ نبيُّنا ﷺ .

فقامَ إليهِ أُبيُّ بنُ خلفٍ الجمحيُّ ، فقال :كذبتَ يا أبا فَصيلٍ ..

فقال له أبو بكرٍ ﷺ : أنتَ أكذبُ يا عدوَّ الله .

فقال : أُناحِبُكَ[1] عشرَ قلائصَ[2] مني ، وعشرَ قلائصَ منك ، فإن ظهرتِ الرومُ على فارسَ غرمتُ ، وإنْ ظهرتْ فارسُ غرمتَ إلى ثلاثِ سنينَ .

ثم جاءَ أبو بكرٍ ﷺ إلى النبيِّ ﷺ فأخبرَه ، فقال :

---

[1] المناحبة : المراهنة .

[2] القلائص : جمع قلوص ، وهي الشابة من الإبل .

« ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضعُ ما بين الثلاثِ إلى التسع، فزايِدْه في الخطَرِ[1]، ومادَّه في الأجل » .

فخرجَ أبـو بكـرٍ ﷺ فلقـيَ أُبيّـاً ، فقـال : لعلّـك ندمتَ ؟

قـال : لا ، تعـالَ أُزايـدْكَ في الخطـرِ ، وأمـادُّكَ في الأجل ، فاجعلْها مائةَ قَلوصٍ إلى تسعِ سنين .

قال : قد فعلتُ .[2]

وأدنى الأرض ، معناه : أقربُ ، قال ابـنُ عطيـةَ : (فإنْ كانتِ الوقعـةُ بأذرعـاتٍ فهـي مـن أدنـى الأرض بالقياس إلى مكةَ ، وإن كانتِ الوقعةُ بالجزيرة فهي أدنى بالقياسِ إلى أرضِ كسرى ، وإنْ كـانتْ بـالأُردُنِّ فهـي أدنى إلى أرضِ الروم ، فلمّا طرأَ ذلك وغُلِبتِ الرومُ سُرَّ

---

[1] الخطر : ما يتخاطرُ عليه ويتراهنُ به .

[2] تاريخ الطبري ج ٢ .

الكفارُ ، فبشَّرَ اللهُ عبادَه بأنَّ الرومَ سيَغلبونَ وتكونُ الدولةُ لهم في الحرب)[1].

وعن عكرمةَ قال : كانت في فارسَ امرأةٌ لا تَلِدُ إلاّ الملوكَ الأبطالَ ، فدعاها كسرى ، فقال : إنّي أُريدُ أن أبعثَ إلى الرومِ جيشاً ، وأستعملَ عليه رجلاً من بنيكِ ، فأشيري عليَّ أيّهم أستعملُ ؟

قالتْ : هذا فلانٌ وهو أروغُ من ثعلبٍ وأحذرُ من صقرٍ ، وهذا فرُّخانُ وهو أنفذُ من سنانٍ ، وهذا شهربراز وهو أحلمُ من كذا ، فاستعملْ أيّهم شئتَ .

قال : فإنّي قد استعملتُ الحليمَ .

فاستعملَ شهربرازَ ، فسارَ إلى الرومِ بأهلِ فارسَ ، وظهرَ عليهم، فقتلَهم وخربَ مدائنَهم، وقطعَ زيتونَهم .

---

[1] تفسير القرطبي .

وذكرَ يحيى بنُ يعمرَ حديثاً مثلَ حديثِ عكرمـةَ ، وزادَ : فلم يبرحْ شهربرازُ يطؤُهم ويخرِبُ مدائنَهم حتى بلغَ الخليجَ ، ثم ماتَ كسرى ، فبلغَهـم موتُـه ، فـانهزمَ شهربرازُ وأصحابُه ، وأُديلَـتْ عليهـمُ الـرومُ عنـد ذلـك فاتّبعوهم يقتلونَهم .[1]

وقال عكرمةُ في حديثه : لَمّا ظهرتْ فـارسُ علـى الرومِ ، جلسَ فَرُّخانُ يشـربُ ، فقـال لأصحابِـهِ : لقـد رأيتُ كأنّي جالسٌ على سـريرِ كسـرى ، فبلـغَ كلامُـهُ كسرى ، فكتبَ إلى شهربرازَ : إذا أتاكَ كتـابي فـابعثْ إليَّ برأسِ فرُّخانَ ، فكتبَ إليه شـهربرازُ : أيُّهـا الملـكُ : إنكَ لنْ تجدَ مثلَ فرُّخانَ ، إنّ له نِكايةً وصوتاً في العدوِّ، فلا تفعلْ .

---

(1) تاريخ الطبري ج ٢ .

فكتبَ إليه : إنَّ في رجالِ فارسَ خَلفاً منه، فعجِّلْ عليَّ برأسِه .

فراجعهُ ، فغضبَ كسرى ، فلم يُجِبْه ، وبعثَ بريداً إلى أهلِ فارسَ : إني قد نزعتُ عنكم شهربرازَ ، واستعملتُ عليكم فَرُّخانَ ، ثم دفعَ إلى البريدِ صحيفةً صغيرةً ، وقال : إذا وَلِيَ فرُّخانُ الْمُلْكَ وانقادَ له أخوه فأعطِهِ هذه الصحيفةَ ، فلمّا قرأ شهربرازُ الكتابَ قال : سمعاً وطاعةً ، ونزلَ عن سريره ، وجلسَ فرُّخانُ ، ودفعَ إليه الصحيفةَ ، فقال : ائتوني بشهربراز ، فقدَّمهُ ليضربَ عُنُقَه ، فقال : لا تعجلْ حتى أكتبَ وصيَّتي .

قال : نعم، فدعا بالسفطِ فأعطاهُ ثلاثَ صحائفَ، وقال : كلُّ هذا راجعتُ فيكَ كسرى ، وأنتَ أردتَ أن تقتلَني بكتابٍ واحدٍ !!

فردَّ الْمُلْكَ إلى أخيه ، وكتبَ شهربرازُ إلى قيصرَ

ملكِ الروم : إنَّ لي إليك حاجةً لا تحملُها البردُ ، ولا تبلغُها الصحفُ ، فالْقَني ، ولا تلْقَني إلاّ في خمسين روميّاً ، فإني ألقاكَ في خمسينَ فارسياً .

فأقبلَ قيصرُ في خمسمائةِ ألفِ روميٍّ ، وجعلَ يضعُ العيونَ[1] بين يديه في الطريق ، وخافَ أن يكونَ قد مكرَ به ، حتى أتاهُ عيونُهُ أنه ليسَ معه إلاّ خمسونَ رجلاً ، ثم بسطَ لهما والتقيا في قبّةِ ديباجٍ ضُرِبَتْ لهما ، مع كلِّ واحدٍ منهما سكينٌ ، فدَعَوا ترجماناً بينهما ، فقال شهربرازُ : إنَّ الذينَ خربوا مدائنَك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتِنا ، وإنَّ كسرى حَسَدَنا فأرادَ أن أقتلَ أخي ، فأبيتُ .. ثم أمرَ أخي أن يقتلَني ، فقد خلعناه جميعاً ، فنحنُ نقاتلُه معكَ .

قال : قد أصبتُما .

---

[1] العيونُ : الجواسيسُ يستطلعونَ الطريقَ .

ثم أشارَ أحدُهما إلى صاحبِهِ أن السرَّ بين اثنينِ ، فإذا جاوزَ اثنينِ فشا .

قال : أجل .

فقتلا الترجمانَ جميعاً بسكينيهما ، ثم أهلَكَ اللهُ كسرى ، وجاءَ الخبرُ إلى رسولِ الله ﷺ يومَ الحُديبيةِ ، ففرحَ ومَنْ معه .(1)

وهذا معنى قولِهِ تعالى: ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أدنى الأرضِ وهم من بعدِ غَلَبِهم سيَغلبونَ * في بضعِ سنينَ للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ * بنصرِ الله ينصُرُ مَنْ يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم ﴾(2).

---

(1) تاريخ الطبري ج ٢ .

(2) الآيات من ١ ـ ٥ من أول سورة الروم .

موقعةُ ذي قار

موقعُها ـ زمانُها ـ أسبابُها ـ وقائعُها ـ نتائجُها

أولاً ـ موقعُها :

ذو قار : ماءٌ لبكرٍ قريبٌ من الكوفةِ من أرضِ العراقِ ، وعليها دارتْ رحى معركةٍ طاحنةٍ بين العربِ والفُرْسِ ، أظهرَ فيها العربُ بطولةً خارقةً ، وشجاعةً فائقةً ، أدَّتا إلى انتصارٍ ساحقٍ للعربِ على أكبرِ قوّةٍ عسكريةٍ في الأرض ..

ويُعَدُّ هذا اليومُ من مفاخرِ العرب ، وله أسماءٌ كثيرةٌ :

فيقالُ له : يومُ قُراقِرَ ، ويومُ الحِنوِ حِنوِ ذي قار ، ويومُ حِنْوِ قُراقِرَ ، ويومُ الجبايات ، ويومُ العجرمِ ،

ويوم الغذوان ، ويومُ البطحاء ، بطحاءِ ذي قار ، وكلُّهنَّ حول ذي قار ، كما ذكرَ الطبريُّ في تاريخه .

وإنما جاءتْ (ذو) مجرورةً بالياء لإضافتها إلى معركة .

ثانياً ـ زمانُها :

وقعتْ معركةُ ذي قار في السنة الثالثةِ من بعثةِ النبيِّ العربيِّ محمد ﷺ قبل أن يؤمَرَ بالجهر بدعوتِهِ ، وهو يومئذٍ مع أصحابِهِ بمكةَ مستضعَفينَ ، فلمّا أعلمَهُ اللهُ تعالى بانتصارِ العربِ في ذي قارٍ فرِحَ بذلك فرَحاً شديداً ، وأخبرَ أصحابَه بذلك ، وقال لهم : « هذا أوّلُ يومٍ انتصفَ العربُ من العجمِ ، وبي نُصِروا »[1] .

وصدقَ رسولُ الله ﷺ ، فقد كانَ نصرُ العربِ في

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

ذي قارٍ فاتحةً لانتصاراتٍ كثيرةٍ متتاليةٍ تُنبئُ بزوالِ مُلْكِ الفُرْسِ على أيدي العرب والمسلمين في جولاتٍ متلاحقةٍ ، ومعاركَ متتابعةٍ .

هذا .. ولم يكَدِ المسلمونَ ـ وهم قِلَّةٌ في مكةَ ـ يسمعونَ من النبيِّ ﷺ هذا النَّبأَ المُفرِحَ حتى غمرتْهمُ الفرْحةُ ، وملَكتْهمُ العزَّةُ ، وسَرَتْ في نفوسِهم رغبةُ القتالِ دفاعاً عنِ العقيدةِ والكرامة ، وحمايةً للنفسِ والدين ، فقالوا لرسولِ الله ﷺ يومَ العقبةِ : واللهِ الذي بعثَكَ بالحقِّ ، إنْ شئتَ لنميلَنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا .

فقال لهم : اصبروا ، فإنّا لم نؤمَرْ بقتالٍ .

ولسوفَ يؤمَرونَ بالقتالِ ، ولسوفَ يكونونَ أهلاً لهذا الأمرِ ، ولسوفَ يقاتلونَ اليهودَ والكافرينَ ، ولسوفَ يقاتلونَ الفُرْسَ والرومَ، ولسوفَ ينالونَ منهم،

وينتصرونَ عليهــم ، ويفتحـونَ بلادَهـم ، وينشـرونَ في ربوعها نورَ الإسلام وهديَـه وعدلَـه ورحمتَـه وتسـامُحَه وإنسانيَّتَه ، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ بنصرِ الله .

ثالثاً ـ أسبابُها :

لمعركةِ ذي قار عدّةُ أسبابٍ ، نُوجِزُها فيما يلي :

أولاً : مقتلُ عديٍّ بنِ زيـدٍ العبـادي ، الـذي قتلـهُ الملكُ النعمانُ بنُ المنذرِ .

وهو : عديُّ بنُ زيدِ بن حمادِ بـنِ زيـدِ بـنِ أيـوبَ ابنِ محروفِ بنِ عامرِ بنِ عصيةَ بنِ امرئِ القيسِ بنِ زيـدِ ابنِ مناة بنِ تميم .

وكانَ عديٌّ هذا جميلَ الوجهِ ، فائقَ الحُسنِ ، بهيَّ الطَّلْعةِ ، وكـان شـاعراً مُجيـداً ، وخطيبـاً بارعـاً ، ومتكلِّمـاً فصيحـاً ، تعلَّمَ اللغتيـنِ العربيـةَ والـفـارسـيـةَ

وأجادَهما ، ونطقَ الشعرَ منذ حداثتِه ، وتعلَّمَ الرمايةَ والفروسيةَ ، فكانَ يجمعُ بين الذكاءِ والعلمِ والثقافةِ والفروسية ، ذلك أنه منذُ صغَرِه ألحقَه أبوهُ إلى الكُتّابِ، ثمّ ضمَّهُ الدِّهقانُ[1] مع ابنِهِ شاهانْ مَرْدْ إلى كُتّاب الفارسية ، فخرجَ من أعلمِ الناسِ وأفصحِهم بالعربيةِ والفارسية ، كما تعلَّم لعبَ العجمِ على الخيلِ بالصوالجةِ[2] وغيرها ، فكانَ من الأساورةِ[3] الرماة .

ثم إنَّ الدِّهقانَ وفِدَ على كسرى ومعه ابنُه شاهانْ مرَدْ ، فأثبتَه كسرى مع سائرِ أولادِ الدِّهقانِ في صحابته .

ثم قال الدِّهقانُ لكسرى : إنَّ عندي غلاماً من

---

[1] الدِّهقان : هو التاجرُ ، أو زعيم القرية .

[2] الصوالجة : جمع صولجان ، وهو عصا يُضرَبُ بها على الدوابّ .

[3] الأساورة : جمع أسوار ، وهو مَن يُجيدُ الرميَ بالسهام .

العربِ خلّفهُ أبوه في حجري ، فربَّيتُه ، وهو غلامٌ جميلٌ وذكيٌّ ، فإنْ رأى الملكُ أنْ يُثبتَه مع ولدي فعَلَ .

فقال الملـكُ : ادعُـهُ .. فـأحضرَه الدِّهقـانُ ، فـرآه الملكُ جميلَ الوجهِ ، فائقَ الحسـنِ ، فلمّـا كلَّمـه وجـدَه أظـرفَ النـاسِ ، وأحضرَهـم جوابـاً ، وكـانتِ الفُـرْسُ تتبرَّكَ بالوجه الجميل ، فرغبَ فيه الملكُ ، وأثبتَه مع ولدِ الدِّهقانِ ، فكانَ عديٌّ أوّلَ من كتبَ بالعربية في ديـوان كسرى .

ولبثَ عديٌّ في ديوان كسرى مدةً طويلةً اكتسـبَ خلالَها ثقافةً فارسيـةً كبـيرةً وواسـعة ، وحَظِـيَ بمركـزٍ عظيمٍ ومرمـوقٍ ، ونـالَ حـبَّ وثِقَـةَ الملـكِ ، فـإذا أرادَ المقـامَ بالحِيرةِ اسـتأذنَ كسـرى فـأذِنَ لـه ، فأقـامَ فيهـا مـا شـاءَ أن يقيـمَ ، ولم يـزلْ مقرَّبـاً مـن كسـرى حتـى أصبحَ من خاصّتهِ ، وممثّلاً عنه ورسـولاً منه إلى الملوك ،

فلقد أرسلَه الملكُ يوماً بهديّةٍ إلى ملك الروم ، زارَ خلالَها دمشقَ وبقيَ فيها زمناً ، وقال فيها شعراً جميلاً ، فكانَ مما قالَ :

ربَّ دارٍ بأسفلِ الجزعِ من دو مةَ أشهى إليَّ من جيزونْ[1]
وندامى لا يفرحون بِمَا نالوا ولا يرهبون صرفَ المَنونْ
قد سُقيتُ الشَّمولَ في دارِ بِشرٍ قهوةً مُزَّةً بماءِ سخينْ[2]

وفي فترةِ غيابه في دمشقَ ، فسَدَ أمرُ الحيرةِ ، وثارَ أهلُها على مِلكِهم المنذرِ وهمُّوا بقتله ، لأنه كان لا يعدِلُ بينَهم ، ويأخذُ من أموالِهم ما يعجبُه ، فلمّا تيقّنَ أنَّ أهلَ الحيرةِ سيقتلونه بعثَ إلى زيدِ بنِ حمادٍ ، وقال له : يا زيدُ ، أنتَ خليفةُ أبي ، وقد بلغني ما أجمعَ عليه أهلُ الحيرةِ ، فلا حاجةَ لي في مُلْكِكم، دونكموه ،

---

[1] دومة: من منازل جذيمةَ الأبرش. وجيزون: بناءٌ عند باب دمشق.

[2] المزّة : الخمرة .

مَلِّكوهُ مَنْ شئتُم .

فقال زيدٌ : إنَّ الأمرَ ليس إليَّ ، ولكني أسيِّرُ لك هذا الأمرَ ، ولا آلوكَ نُصحاً[1] .

ثم اتفقا مع أهلِ الحيرةِ على اقتسامِ الحكمِ ، فتولّى زيدٌ كلَّ شيءٍ سوى اسمِ الملكِ فقد بقيَ للمنذر .

وتمرُّ الأيامُ ويعودُ عديٌّ إلى المدائن حاملاً إلى كسرى هدايا قيصرَ ، فصادفَ أباه والدِّهقانَ الذي ربّاه قد هلَكا جميعاً ، فاستأذنَ كسرى أن يعودَ إلى الحيرةِ ليُشرفَ على أحوالِها ، فأذِنَ له .

لم يكنْ عديٌّ من الذينَ يرغبونَ في الحكم ، أو يحبُّونَ المُلْكَ ، إنما كانَ يعشقُ الارتحالَ والأسفارَ ، ويحبُّ الصيدَ واللَّهوَ واللعبَ ، ويُؤْثِرُ ذلك على الملك

---

[1] لا آلوكَ نُصحاً : لا أقصِّرُ في نصحك .

والسلطان ، ولم يزلْ متنقِّلاً بين الحيرة والمدائنِ ، ويخدُم كسرى ، حتى تزوّجَ هنداً بنتَ النعمان بنِ المنذر .

تتويجُ النعمانِ بنِ المنذر ملِكاً على الحِيرة

موقع الحيرة :

تقعُ الحيرةُ على بُعْدِ ثلاثةِ أميالٍ من مكانِ الكوفةِ في موضعٍ يقال له : النجف ، على ضفةِ الفراتِ الغربيةِ في حدود الباديةِ بينها وبين العراقِ ، وتقعُ الآنَ في الجنوبِ الشرقي من مشهد عليٍّ ﷺ .[1]

وإنَّما سُمِّيتْ بالحِيرةِ لِمَا ذكر الطبريُّ عن أحدِ ملوكِ التبابعةِ : أنَّ أسعدَ بنَ كربٍ شَخَصَ متوجِّهاً من اليمنِ في الطريقِ الذي سلَكَهُ الرائشُ حتى خرجَ على

---

[1] العالم الإسلامي .

جبلي طيّئٍ ، ثم سارَ يريدُ الأنبارَ ، فلمّا انتهى إلى الحيرةِ وذلك ليلاً تحيَّرَ فأقامَ مكانَه ، وسُمِّيَ ذلكَ الموضعُ الحيرةَ ، وخلّفَ به قوماً من الأزدِ ولخمٍ وجذامَ وعاملةَ وقضاعةَ ، فبنَوا وأقاموا به ، ثم انتقلَ إليهم بعدَ ذلكَ ناسٌ من طيّئٍ وكلب .

وقال الطبريُّ : وعمرُو بنُ عديٍّ أوّلُ مَنِ اتّخذَ الحيرةَ منزلاً من ملوكِ العربِ ، وأوّلُ من تجدُهُ أهلُ الحيرةِ في كتبهم من ملوكِ العربِ بالعراقِ وإليه يُنسَبونَ .[1]

ومنذ أُسِّسَتْ إمارةُ الحيرةِ عامَ ٢٤٠ م كما تقدَّمَ وليَ عليها عمرُو بنُ عدي ، ولا يزالُ المُلْكُ في عائلتِهِ اللخميَّةِ التي تنتسبُ إلى الديانةِ النصرانيةِ حتى سنةَ

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

٦٠٥ بعد الميلادِ .

قال ابنُ خلدونَ : ولَمّا هلكَ عمرُو بنُ عديٍّ وليَ بعدَه على العربِ وسائرِ مَن ببادِيةِ العراقِ والحجازِ والجزيرةِ امرؤُ القيسِ بنُ عديّ ، ويقالُ له : البدءُ ، وهو أوَّلُ من تنصَّرَ من ملوكِ آلِ نصرٍ وعُمّالِ الفرسِ .[١]

قال المسعوديُّ : وكانتْ عدّةُ الملوكِ بالحِيرةِ ثلاثةً وعشرينَ ملِكاً من بني نصرٍ وغيرِهم من العربِ والفُرْسِ ، وكان مُدَّةُ ملْكِهم ستمائة واثنتين وعشرين سنةً وثمانيةَ أشهرٍ .[٢]

وهم المناذرةُ بنو عديّ بن نصرِ بنِ ربيعةَ من ولدِ لخمِ بنِ عديٍّ بنِ سبأٍ ، ولا يزالُ المُلْكُ فيهم حتى انتهى

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ١ .

إلى النعمان بنِ المنذرِ ، وهو الذي سيكونُ محورُ الحديثِ دائراً عن تتويجه مِلِكاً على الحيرةِ .

دورُ عديٍّ بنِ زيدٍ في تتويجِ النعمان

كان للمنذرِ ابنان : أحدُهما النعمانُ ، وكان في حِجْرِ آلِ عديٍّ بنِ زيدٍ ، فهمُ الذين أرضعوهُ وربَّوهُ ، وكان له ابنٌ آخرُ في حِجْرِ بني مرينا يقال له : الأسود ، وكان له سواهما من الولدِ عشرةٌ ، وكان يقال لوُلْدِهِ : الأشاهبُ لجمالِهم ، وكانَ النعمانُ من بينهم أحمرَ أبرشَ قصيراً، فلمّا احتضرَ المنذرُ أوصى بأولادهِ إلى إياسِ ابنِ قبيصةَ الطائي ، وملّكه على الحيرةِ إلى أنْ يرى كسرى رأيَهُ، فمكثَ مُمَلَّكاً عليها أشهراً، وكسرى بنُ هرمزَ في طلبِ رجلٍ يُمَلِّكُه عليهم ، فقال لعديٍّ بنِ زيدٍ : مَنْ بقيَ من آلِ المنذر؟ وهل فيهم أحدٌ فيه خيرٌ ؟

فقال : نعم ، أيُّها الملكُ السعيدُ ، إنَّ في ولدِ المنذرِ بقيّةً ، وفيهم كلِّهم خيرٌ .

فقال : ابعثْ إليهم فأحضِرْهم .[1]

فكتبَ إليهم عديٌّ بنُ زيدٍ يستقدمُهم ، فقدموا عليه ، فكانَ يتظاهرُ أنه يفضِّلُ إخوةَ النعمانِ عليه ، ويُريهمْ أنَّهُ لا يُريدُه دونَهم ، وجعلَ يخلو بهم رجلاً رجلاً ، ويقولُ لهم : إنْ سألكمُ الملكُ : أتكفونني العربَ ؟ فقولوا : نكفيكَهم إلاّ النعمانَ .

وقال للنعمان : إنْ سألَكَ الملكُ عن إخوتكَ فقلْ له : إنْ عجزتُ عنهم فأنا عن غيرِهم أعجزُ .

وكانَ من بني مرينا رجلٌ يقالُ له : عديُّ بنُ أوسِ ابنِ مرينا ، وكان داهيةً ماكراً ، وشاعراً فصيحاً ، فقال

---

(1) أيام العرب في الجاهلية . •

للأسودِ بنِ المنذرِ : إنكَ قد عرفتَ أني لـكَ راجٍ ، وأنَّ طلبتي ورغبتي إليك أن تُخالفَ عديَّ بنَ زيدٍ فإنــه وا لله لا ينصحُ لك أبداً .

فلم يلتفتِ الأسودُ إلى قولِهِ ، ولم يُنفِّذْ له ما طلبَ منه .

فلمّا أمرَ كسرى عـديَّ بـنَ زيـدٍ أن يُدْخِـلَ عليـه أبناءَ المنذرِ ، جعلَ يُدْخلُهمُ الواحدَ بعدَ الآخرِ ، فيُكلِّمُـهُ في الأمرِ ، فكانَ يـرى رجـالاً قلَّمـا رأى مثلَهـم ، فـإذا سألَهم : هل تكفونني ما كنتُم تَلُـونَ ؟ قـالوا : نكفيـكَ العربَ إلاّ النعمانَ .

فلمّا دخلَ عليه النعمانُ رأى رجلاً دميماً ، فكأنـه استصغرَ شأنَه فلـم يحفـلْ بـه ، فقـال لـه : أتستطيعُ أن تكفيَنِي العربَ ؟

قال : نعم .

قال : فكيفَ تصنعُ بإخوتك ؟

قال : إنْ عجَزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجزُ .

فأُعجِبَ بـه وبكلامـه ، وحسـنِ جوابـهِ ، فملّكـه وكساه ، وألبسَهُ تاجاً قيمتُهُ ستونَ ألفَ درهـمٍ مرصَّعـاً باللؤلؤِ والذهبِ وأنواعِ الجوهرِ ، فلمّا خرجَ من مجلـسِ كسرى ورآه عديُّ بنُ أوسِ بنِ مرينا ، وقد تُوِّجَ مِلِكـاً نظرَ إلى الأسودِ وقال له : دونَـكَ ، فـإنكَ قـد خـالفتَ الرأيَ .

ثم إنَّ عديَّ بنَ زيدٍ صنعَ طعاماً ودعـا إليـه عـديَّ ابنَ أوسِ بنِ مرينا ، وقال له : يا عـديُّ ، إنَّ أحـقَّ مَـنْ عرفَ الحقَّ ثم لم يَلُمْ عليـه مَـنْ كـان مثلَـك ، إنـي قـد عرفتُ أنَّ صاحبَكَ الأسودَ بنَ المنذرِ كانَ أحـبَّ إليـكَ أن يُمَلَّكَ من صاحبي النعمانِ ، فـلا تَلُمْني علـى شيءٍ كنتَ على مثلـه ، وأنـا أحبُّ ألاّ تـحـقـدَ عليَّ شيئاً لـو

قدرتَ عليه ركبتَه ، وأنا أحبُّ أن تعطيَني من نفسكَ ما أعطيتُك من نفسي ، فإنّ نصيبي من هذا الأمر ليسَ بأوفرَ من نصيبكَ .. ثم قام عديٌّ بنُ زيدٍ إلى البيعةِ فحلفَ ألاّ يهجوَه ولا يبغيَه غائلةً أبداً ، ولا يزوي عنه خيراً أبداً .

فلمّا فرغَ عديٌّ بنُ زيدٍ من كلامِهِ قامَ عديٌّ بنُ مرينا فحلفَ على مثلِ يمينهِ ألاّ يزالَ يهجوه أبداً ، ويبغيه الغوائلَ ما بقيَ .

وخرجَ النعمانُ حتى نزلَ منزلَهُ بالحيرةِ مَلِكاً عليها فقال عديٌّ بنُ مرينا لعديٍّ بنِ زيدٍ :

ألا أبلغْ عديّاً عن عديٍّ فلا تجزعْ وإنْ رثّتْ قواكا[1]
هياكلُنا تبزُّ لغيرِ فقرٍ لتحمدَ أو يتمَّ به غناكا[2]

---

(1) رثّت : ضَعُفَتْ .

(2) تبزُّ : بزبزَ الشيءَ رمى به ولم يُردْه .

فإنْ تظفرْ فلم نظفرْ حميداً   وإنْ تعطبْ فلا يبعدْ سواكا[1]
ندمت ندامةَ الكسعيِّ لَمَّا   رأتْ عيناكَ ما صنعتْ يداكا

وقال عديُّ بنُ مرينا للأسودِ بنِ المنذرِ : أما إذا لم تظفرْ فلا تعجزْ أنْ تطلبَ بثأركَ من هذا المعدّي الذي عملَ بك ما عملَ ، فقد كنتُ أخبرتُك أن مَعَدًّا لا ينامُ مكرَهاً ، أمرتُك أن تعصيَه فخالفتْني .

قال الأسودُ : فما تريدُ ؟

قال : أريدُ أن لا يأتيَكَ فائدةٌ من مالِكَ وأرضِكَ إلاّ عرضتَها عليَّ ... ففعلَ .

مقتلُ عديِّ بنِ زيدٍ

كان ابنُ مرينا كثيرَ المالِ والضَّيعةِ ، فلم يكُ في الدهرِ يومٌ إلاّ على بابِ النعمان هديّةٌ من ابنِ مرينا ،

---

[1] تعطب : تهلك .

فصارَ من أكرمِ الناسِ عليه ، وكان لا يقضـي في مُلْكِهِ شيئاً إلاّ بأمرِ عديٍّ بنِ مرينا ، وكان إذا ذُكِرَ عديُّ بـنُ زيدٍ عندَه أحسنَ عليـه الثنـاءَ وذكـرَ فضلَـه وقـال : إنـه لا يصلحُ المعديُّ إلاّ أن يكونَ فيه مكرٌ وخديعةٌ .

ورأى الناسُ منزلةَ ابنِ مرينا عنـدَ النعمـان فـلزموهُ وتابعوه ، فجعلَ يقولُ لِمَـنْ يثـقُ بـه مـن أصحابـهِ : إذا رأيتُموني أذكرُ عديّاً عنـد الملكِ بخيرٍ فقولـوا لـه : إنـه لكذلك ، ولكنه لا يسلمُ عليه أحدٌ ، وإنـه ليقـول : إن الملِكَ ـ يعني النعمان ـ عاملُهُ ، وإنّه هـو ولاّه مـا ولاّه ، فلم يزالوا به حتى شحنوه حقـداً وكراهيـةً ، وأوغـروا صدرَه عليه ، وزوّروا على لسـانه كتابـاً إلى قهرمـانَ[1] له ، ثم دسُّوا إليه حتى أخذوا الكتابَ منـه ، وأوصلـوه

---

(1) القهرمان : أمينُ الملك وخاصّتُه عند الفُرْس .

إلى النعمان الذي قرأه ، فاشتدّ غضبُه ، وأضمرَ له المكيدةَ والانتقامَ ، وحاولَ أن يستدعيَه إليه ليبطشَ به وينتقمَ منه ، فأرسلَ إليه يقولُ له : عزمتُ عليكَ إلاّ زرتَني ، فإني قد اشتقتُ إلى رؤيتِكَ .

وعديٌّ بنُ زيدٍ يومئذٍ عند كسرى ، فاستأذنه بالرحيلِ إلى الحِيرةِ ، فأذنَ له ، ولم يكَدْ عديٌّ يطأُ أرضَ الحيرةِ ويدخلُ على النعمان حتى أمرَ بالقبضِ عليه وإلقائهِ في زنزانةٍ مظلمةٍ لا يدخل عليه فيها أحدٌ ، ولا يعلمُ أحدٌ عنه شيئاً .. وعديٌّ بنُ زيدٍ في سجنهِ يرسُفُ بأغلاله ، وينظمُ الشعرَ الحزينَ ، يبثُّ فيه آلامَهُ وأحزانَه وما يلقاهُ في سجنِ النعمان جزاءَ ما قدَّمَ إليه من إحسانٍ أن يُلقى في السجنِ رهينَ السلاسلِ والقيودِ والأغلال ، فكانَ من جيّدِ شعرِه ما قاله في سجنِ النعمان :

سعى الأعداءُ لا يألونَ شراً   عليَّ وربِّ مكةَ والصَّليبِ
أرادوا كي تمهَّلَ عن عديٍّ   لِيُسْجَنَ أو يُدهدَهَ في القَليبِ[1]
وكنتُ لزازَ خصمكَ لم أُعرِّدْ   وقد سلكوك في يومٍ عصيبِ[2]
أغالبُهم وأبطنُ كلَّ سرٍّ   كما بين اللحاءِ إلى العسيبِ[3]
ففزتُ عليهمُ لمّا التقينا   بتاجكَ فوزةَ القِدْحِ الأريبِ
وما دهري بأنْ كُدِّرتُ فضلاً   ولكنْ ما لقيتُ من العجيبِ
ألا مَنْ مُبلغُ النعمانِ عنّي   وقد تُهدى النصيحةُ بالمغيبِ
أحظّي كان سلسلةً وقيداً   وغُلاًّ والبيانُ لدى الطبيبِ
أتاكَ بأنني قد طال حبسي   ولم تسأمْ بمسجونٍ حريبِ[4]
وبيتي مقفرٌ إلاّ نساءً   أراملَ قد هلكْنَ من النحيبِ

---

(1) دهده الشيَ : حدرهُ من علوٍّ إلى سفل ، والقليب : البئر .

(2) لزاز خصمك : أي لا أدَعُ خصمَكَ يخالفُ ويعاندُ ، ولم أُعرِّدْ : لم أهربْ وأفرّ .

(3) العسيب : جريد النخل ، واللحاء : قشر الشجر .

(4) الحريب : من سُلِبَ مالُه .

يُسادِرْنَ الدموعَ على عـدِيٍّ كشنٍّ خانه خرزُ الربيبِ[1]
يُحاذِرنَ الوشاةَ على عديٍّ وما اقترفوا عليه من الذنوبِ
فإنْ أخطأتُ أو أوهمتُ أمراً فقد يَهِمُ المصافي بالحبيبِ
وإنْ أَظْلِمْ فقد عاقبتموني وإن أُظلَمْ فذلك من نصيبي
وإنْ أهلِكْ تجدْ فقدي وتُخذَلْ إذا التقتِ العوالي في الحروبِ
فهلْ لكَ أن تُدارِكَ ما لدينا ولا تُغلَبْ على الرأيِ المصيبِ
فإني قد وكَلْتُ اليومَ أمري إلى ربٍّ قريبٍ مستجيبِ

ولا يزالُ عديٌّ قابعاً في سجنه ، يرسُفُ في أغلاله وقيودِهِ حتى طالَ سجنُه ، ولم يشعرْ به أحدٌ ، فكتبَ إلى أخيه أُبَيّ ، وكان مع كسرى بالمدائنِ :

أبلغْ أُبَيّاً على نأيِهِ وهل ينفعُ المرءَ ما قد علِمْ
بأنَّ أخاكَ شقيقَ الفؤا دِ كنتَ به واثقاً ما سَلِمْ
لدى ملِكٍ موثَقٌ بالحد يدِ إمّا بحقٍّ وإما ظُلِمْ

[1] الشنُّ : كلُّ آنيةٍ صُنعتْ من جلد ، والربيب : المصلح .

فلا أعرفنْكَ كذاتِ الـغـلا   مِ ما لم تجدْ عارماً تعترمْ[1]
فأرضَكَ أرضَكَ إنْ تأتِنـا   تنمْ نومـةً ليس فيها حُلُـمْ

ويبلـغُ كتـابُ عـديٍّ أُبيّـاً ، فينهـضُ إلى كسـرى ليُخبرَه بأمرِ عديٍّ ، وما إنْ سمعَ كسرى بهذا الخبرِ حتى استشاطَ غضباً، وكتبَ فوراً إلى النعمان يأمرُهُ بإطلاقـهِ، وبعثَ معه رجلاً ــ وكان خليفةً للنعمان عند كسرى ـ فأخذَ رسولُ كسـرى الكتـابَ وانطلـقَ بـه إلى الحـيرةِ ، فدخلَ على عديٍّ في سجنهِ قبلَ أنْ يذهبَ إلى النعمان ، وقال له : يـا عـديُّ ، إنـي قـد جئـتُ بإرسـالِكَ ، فمـا عندَكَ ؟

قال : عندي الذي تحبُّ ، ووعَدَه بعطـاءٍ جـزيلٍ ،

---

(1) ذات الغلام : الأمّ المرضع ، والعـارم : الراضـع ، والمـراد كمـا في اللسان : إنْ لم تجدْ من ترضعُه درّتْ هي فحلبت ثديَها ، ويقال هـذا لمن يتكلّف ما ليس من شأنه .

وقال له : لا تخرجنَّ من عندي ، وأعطني الكتابَ حتى أُرسلَ به ، فإنك وا لله إنْ خرجتَ من عندي لأُقتلَنَّ .

فقال : لا أستطيعُ إلاّ أنْ آتيَ النعمانَ بالكتابِ فأوصلَه إليه .

فانطلقَ بعضُ مَنْ كان هناك من أعدائه ، وأخبرَ النعمانَ أنَّ رسولَ كسرى دخلَ على عديٍّ وهو ذاهبٌ به ، وإنْ فعلَ فوا لله لم يَسْتبقِ منّا أحداً أنتَ ولا غيرَكَ .

فبعثَ النعمانُ مَنْ قتلَ عديّاً في السجنِ .

ودخلَ رسولُ كسرى على النعمان ودفعَ إليه الكتابَ ، فقال : نعم وكرامة ، وبعثَ إليه بأربعةِ آلافِ مثقالٍ وجارية ، وقال له : إذا أصبحتَ فادخلْ عليه فأخرجْه أنتَ بنفسِكَ .

وفي الصباحِ توجَّه نحوَ السجنِ ، فلمّا رآه الحرسُ قال له : إنه قد ماتَ منذ أيامٍ فلم نجترئ على أنْ نُخبرَ

الملكَ خوفاً منه ، وقد علمنا كراهتَه لموته .

فرجعَ الرسولُ إلى النعمان فقال : إني قد دخلتُ عليه وهو حيٌّ ، وجئتُ اليومَ فذكرَ ليَ السَّجّانُ أنه قد ماتَ منذ أيامٍ ، فغضبَ النعمانُ وقال : يبعثُك الملكُ إليَّ فتدخلُ إليه قبلي !! كذبتَ ولكنّك أردتَ الرشوةَ والخبثَ ، وجعلَ يتهدَّدُه ويتوعّدُه ، ثم ذكرَ مكانتَه عند كسرى فخشيَ أن يخبرَه بذلك ، وأخذ يستلطفُه ويكرمُه حتى استوثقَ منه ألاّ يُخبرَ كسرى بشيءٍ ، وأنه قد ماتَ قبلَ أن يقدمَ عليه ، ورجع إلى كسرى فأخبرَه أنَّ عديّاً ماتَ في السجنِ قبل أن يصِلَ إليه .

ندمُ النعمان على قتلِ عديٍّ بنِ زيد

نَدِمَ النعمانُ على موتِ عديٍّ ، وأدركَ أنَّ هذا كان نتيجةَ المؤامرات والدسائس التي دبّرها عديُّ بنُ

مرينا ومَنْ معه من بطانةِ السوء الذين لا يريدون له ولمُلْكِه إلاّ الزوالَ والدَّمارَ ، وأحسَّ بموتِ عديٍّ أنه فقدَ أكبرَ عونٍ وأقوى سندٍ له عند الملك كسرى ، هنا شعرَ النعمانُ أنه لم يُقابلِ الإحسانَ بمثلهِ ، إنما قابلَه بالإساءةِ ، واستبدلَ بالمعروفِ جحوداً ، وبالخيرِ نُكراناً .

وبينما هو في عذابه النفسي ، وتلوُّمِه وتندُّمه على ما فعلَ وكان قد خرجَ في بعضِ صيدِهِ ذاتَ يومٍ ، إذِ التقى بأحدِ أبناء عديّ ، وكانَ فتًى جميلاً وسيماً كثيرَ الشبهِ بأبيه ، فلمّا رآه عرَفَ شبَهَه فقال : مَنْ أنتَ ؟

قال : أنا زيدُ بنُ عديٍّ بنِ زيدٍ وتبادلَ معه أطرافَ الحديثِ ، فإذا هو شابٌّ ذكيٌّ فَطِنٌ ، يُجيدُ اللباقةَ والكياسةَ ، ففرحَ به وأكرمَهُ وقرَّبه وخلعَ عليه العطايا ، واعتذرَ إليه من أمرِ أبيه ، ثمّ جهّزه وسَيَّرَه إلى كسرى ، وزوّده بكتابٍ قال فيه : إنَّ عديّاً كانَ مِمَّنْ

أُعينَ به الملكُ في نُصحهِ ولُبِّه ، فأصابهُ ما لا بدَّ منه ، وانقضتْ مدَّتُه ، وانقضى أجلُه ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدَّ من مصيبتي ، وأمّا الملكُ فلم يكنْ ليفقدَ رجلاً إلاّ جعلَ اللهُ له منه خَلَفاً ، لِما عظّمَ اللهُ له من مُلْكهِ وشأنِهِ ، وقد أدركَ له ابنٌ ليس دونَهُ ، وقد رأيتُه يصلحُ لخدمةِ الملِكِ ، فسرَّحتُه إليه ، فإنْ رأى الملكُ أنْ يجعلَه مكانَ أبيه ، فلْيفعلْ .

فقبلَهُ الملكُ وعيَّنهُ في بلاطهِ ، فكانَ من خاصّتهِ والمقرَّبينَ لديه ، فلمّا وقعَ عندَهُ هذا الموقعَ ، سألَهُ كسرى عنِ النعمان ، فذكرهُ بخيرٍ وأثنى عليه ..

ومكثَ زيدُ بنُ عديٍّ في بلاط كسرى سنواتٍ بمنزلةِ أبيهِ مُعزَّزاً مكرَّماً .

مقتلُ النعمان بنِ المنذر

أحبَّ كسرى زيدَ بنَ عديّ كما كـانَ يحبُّ أبـاه عَديّاً ، وأُعجِبَ به وقرَّبه منه ، فكانَ زيدٌ يُكثِرُ الدخولَ عليه والقيام بخدمتِهِ .

وكـانتْ لملوكِ العجـمِ صفـةٌ مـن النسـاء مكتوبـةٌ عندَهم ، فكانوا يبعثونَ بتلك الصفةِ في بعضِ البلـدان ، فإذا وُجِدَتْ في امرأةٍ حُمِلَـتْ إلى المِلِـكِ ، غـيرَ أنهـم لم يكونـوا يتنـاولون أرضَ العـربِ بشـيءٍ مـن ذلـك ، ولا يطلبونها عندَهم ، ثـم بـدا للملـك أن يطلُـبَ تلـك الصفةَ ، فدخلَ عليه زيدُ بنُ عديّ وقد عـرفَ مـا يريـدُ الملكُ ، فقال له : إني رأيتُ الملكَ قـد كتـبَ في نسـوةٍ يُطلَبْنَ له ، وقرأتُ الصفةَ التي يريدُها ، وقد كنـتُ بـآلِ المنذرِ عالِماً ، وعندَ عبـدِك النعمـان مِـنْ بناتِـهِ وأخَواتِـهِ وبناتِ عمِّه أكثرُ من عشرينَ امرأةً على هذه الصفة .

قال : فتكتبُ فيهنَّ ؟

قال : أيُّهـا الملـكُ ، إنَّ شـرَّ شـيءٍ في العـربِ وفي النعمان خاصّةً أنهم يتكرَّمونَ - زعموا في أنفسِهم - عن العجـم ، فأنـا أكـرهُ أن يُغيِّبهـنَّ عمَّـنْ تبعـثُ إليـه ، أو يَعرِضُ عليه غيرَهنَّ ، وإن قدمتُ أنا عليه لم يقدِرْ أن يُغيِّبهنَّ ، فابعثني وابعثْ معيَ رجـلاً مـن حرَسِـكَ يفقـهُ العربيةَ حتى أبلغَ ما تحبُّه .

فبعثَ معه رجلاً جليداً ، فخرجَ به زيدٌ حتى بلـغَ الحيرةَ، فلمّا دخلا على النعمان رحَّبَ بهما وأكرمَهمـا، ثم قال له زيـدٌ : إنَّ الملـكَ قـدِ احتـاجَ إلى نسـاءٍ لأهلـه وولدِه ، وأرادَ كرامتَك بصهرِه فبعثَ إليك .

قال النعمانُ : وما هؤلاء النسوةُ ؟

قال زيدٌ : صفتُهنَّ مكتوبةٌ .. وقرأها عليه وكانت كثيرةً مُثْبتةً .

فقال النعمانُ لزيدٍ ـ ورسولُ كسرى يسمعُ ـ :

أما في عِينِ السوادِ وفارسَ ما تبلغونَ حاجتَكم ؟!

فقال الرسولُ لزيدٍ : ما العِينُ ؟

قال : البقرُ .

ثم قال زيدٌ للنعمان : إنما أرادَ كرامتَك ، ولو علمَ أنَّ هذا يشقُّ عليكَ لم يكتبْ إليكَ به .

وكتبَ النعمانُ إلى كسرى : إنَّ الذي طَلَبَ الملكُ ليس عندي ، وقال لزيدٍ : أُعذرني عندَه ..

فلمّا رجعَ إلى كسرى قال : هذا كتابُهُ .. وقرأه عليه ، فقال له كسرى : فأينَ الذي كنتَ أخبرتَني به ؟

قال : كنتُ أخبرتُك بضنِّهم[1] بنسائهم على غيرِهم ، وأنَّ ذلك من شقائِهم واختيارِهمُ الجوعَ

---

[1] الضنّ : البخل .

والعُرْيَ على الشِّبَعِ والرياشِ ، واختيارِهمُ السمومَ والرياحَ على طيبِ أرضِكَ هذه ، حتى إنهم لَيُسَمُّونها السجنَ ، فسلْ هذا الرسولَ الذي كان معي عن الذي قال ، فإني أُكَرِّمُ الملكَ عن الذي قال .

فقال الملكُ للرسول : وما قال ؟

قال : أيُّها الملكُ ، قال : أما في بقرِ السوادِ وفارسَ ما يكفيه حتى يطلبَ ما عندنا ؟!

فغضبَ الملكُ غضباً شديداً ، وظهرَ ذلك على وجهه ، ووقعَ في قلبهِ منه ما وقعَ ، ولم يزدْ على أنْ قال : رُبَّ عبدٍ قد أرادَ ما هو أشدُّ من هذا ، ثم صارَ أمرُه إلى التباب[1] .

وشاعَ هذا الكلامُ وانتشرَ بين الناس ، وأخذوا

---

[1] التباب : الهلاك .

يتناقلونَه حتى بلغَ النعمانَ الـذي أخـذَ يتوقَّـعُ الشـرّ مـن كسرى ويستعدُّ له ، حتى أصبحَ في دوَّامةٍ مــن الخـوفِ والقلقِ لا تُفارقُه ولا تنفكُّ عنه في ليـلٍ ولا نهـارٍ ولا في صَحْوٍ ولا نومٍ ، حتى جاءهُ كتـابُ الملـكِ : أنْ أقبـلْ ، فإنَّ للملكِ إليكَ حاجةً .

فأيقنَ النعمانُ أنَّ كسـرى قاتلُـه لا محالـةَ ، ولكـنْ ماذا عليه أن يفعلَ ؟ وأين يحتمي ؟ وبِمَنْ يمتنعُ من انتقام كسرى وغضبِتِهِ ؟ إنَّ أحداً لا يستطيعُ أن يُدافـعَ عنـه ، لأنه لا أحدَ يملكُ القدرةَ على أنْ يدافعَ عنه ، وإنَّ أحداً لا يملكُ أن يحميَه ، لأنـه لا أحـدَ يملـكُ القـوةَ علـى أن يحميَه ، بل ولا أحدَ يملكُ الجرأةَ أن يقفَ أمـامَ كسـرى وجحافلِهِ القويةِ وجيوشِهِ الجـرَّارةِ فضـلاً عـن أنْ يقاتلَـه أو يتصدَّى له في معركةٍ غيرِ متكافئةٍ .

ما على النعمـان بعـد تقليبِ الأمـورِ وتـمحيصِهـا

ودراسةِ الموقـفِ وتأمُّلِـهِ إلاّ أن يُذْعِـنَ للأمـرِ ، ويرضـى بالواقعِ ، فحملَ سلاحَه وما قويَ عليه ، ثم لحـقَ بجبـلِ طيّئٍ ، وكانَ متزوّجاً منهم بامرأتين ، آمِـلاً أن يُدخلـوه في حمايتِهم ، ويمنعوه مـن تهديـدِ كسـرى ، فـأبَوا عليـه خوفـاً مـن بطـش كسـرى وثورتِـهِ ، وقـالوا لـه : لـولا صهرُكَ لقتلناك ، فإنه لا حاجةَ بنا إلى معاداةِ كسـرى ، ولا طاقةَ لنا به .

فخـرجَ النعمـانُ مـن بـين أظهُرِهـم خَجِـلاً يائسـاً مجروحَ القلبِ ، مكلومَ الفـؤادِ ، ينـدبُ حظَّـه ويأسـفُ لمصيرِه ، أنه لم يجدْ له في قبيلةِ طيِّئٍ مَـنْ يحميـه ، ويشـدُّ أزرَه ، أو على الأقلّ يُغيِّبُه بين جبلي طيِّئٍ سرّاً وخُفيةً .

وأخذَ يطوفُ على قبائلِ العربِ لعلّه يجدُ منْ يحميه أو يقبلُه أو يجيرُه ، غيرَ أنَّ بني رواحةَ بنِ سـعدٍ مـن بـني عبسٍ قالوا : إنْ شئتَ قاتلنا معكَ ـ وذلك لِمِنَّـةٍ كانت

له عندَهم ـ فقال : لا أُحبُّ أنْ أُهلِكَكُم ، فإنه لا طاقـةَ لكم بكسرى .

فأقبلَ حتى نزلَ بذي قارٍ ، وهو ماءٌ لبكرِ بنِ وائلٍ قريبٌ من مكان الكوفـةِ ـ كمـا تقـدَّم ـ فدخـلَ علـى بني شيبانَ سرًّا ، فلقيَ هانئَ بنَ مسـعودٍ ، وكـان سـيِّداً منيعـاً ، فاسـتجارَ بـه فأجـارَه ، وقـال لـه : قـد لزمـني ذمامُك ، وأنا مانعُك[1] مِمَّا أمنعُ نفسي وأهلي وولدِي منه ما بقيَ من عشيرتي الأدنين[2] رجلٌ .

قال الطبريُّ : قال بعضُهـم : لم يُدْرِكْ هـانئُ بـنُ مسعودٍ هذا الأمرَ ، إنَّما هو هانئُ بنُ قبيصـةَ بـنِ هـانئ ابنِ مسعود ، وهو الثَّبْتُ عندي .[3]

---

[1] مانعُك : حاميك .

[2] الأدنين : الأقربين .

[3] تاريخ الطبري ج ٢ .

ثم قال هانئُ بنُ قبيصةَ للنعمان : إنَّ ذلك غيرُ نافعِكَ ، لأنه مُهلكي ومهلكُكَ ، وعندي رأيٌ لك لستُ أشيرُ به عليك لأدفعَك عمّا تريده من مجاورتي ، ولكنه الصواب .

فقال : هاتِهِ .

قال هانئُ : إنَّ كلَّ أمرٍ يجمُلُ بالرجلِ أنْ يكونَ عليه إلاّ أنْ يكونَ بعدَ الْمُلْكِ سُوقةً ، والموتُ نازلٌ بكلِّ أحدٍ ، ولأنْ تموتَ كريماً خيرٌ من أنْ تتجرَّعَ الذُّلَّ أو تبقى سُوقةً بعدَ الملكِ ، هذا إنْ بقيتَ ، فامضِ إلى صاحبكَ ، واحملْ إليه هدايا ومالاً ، وألقِ بنفسكَ بينَ يديه ، فإمّا أنْ صفحَ عنكَ فعدتَ ملكاً عزيزاً ، وإمّا أنْ أصابكَ فالموتُ خيرٌ من أن يتلعَّبَ بكَ صعاليكُ العربِ، ويتخطَّفَك ذئابُها ، وتأكلَ مالَك ، وتعيش فقيراً مجاوراً أو تُقتَلَ مقهوراً .

قال النعمانُ : فكيف بحُرَمي ؟

قال : هنَّ في ذمتي لا يُخلَصُ إليهنَّ حتى يُخلَصَ إلى بناتي .

فمالَ النعمانُ إلى هذا الرأيِ واقتنعَ به وقال : هذا وأبيك الرأيُ الصحيحُ ولن أُجاوزَه .

وكتبَ إلى كسرى يعتذرُ إليه ، ويُعلِمُه أنه قادمٌ إليه ، واختارَ من الهدايا أثمنَها ، ومن الجواهرِ واليواقيتِ أنفسَها ، ومن الخيلِ والحُلَلِ أجودَها ، ثم أرسلَ بها إلى كسرى مع رسولٍ يُمثِّله ، فقبلَها وأمرَه بالقدومِ عليه ، فعادَ إليه الرسولُ فأخبرَه بذلك ، وأنه لم يرَ عندَ كسرى سوءاً ، ولا بأسَ عليه بالقدومِ إلى المدائنِ .

ومضى النعمانُ إلى كسرى بعدَ أن استودعَ هانئَ ابنَ قبيصةَ أموالَه وأهلَه ونَعمَه وابنتيه ، فلمَا بلغَ قنطرةَ

ساباط[1] لقيهُ زيدُ بنُ عديّ فقال له : أُنجُ نُعيمُ إن استطعتَ النجاءَ ، فأدركَ النعمانُ أنها مكيدةٌ دبَّرَها زيدُ ابنُ عدي ، فقال له : أفعلتَها يا زيدُ ؟ أمَا واللهِ لئنْ عشتُ لأفعلنَّ بكَ ما فعلتُ بأبيكَ .. أو قال : لأقتلنّكَ قِتلةً لم يقتلْها عربيٌّ قطُّ ، ولأُلحِقنَّكَ بأبيكَ .

فقال له زيدٌ : اِمضِ نُعيم ، فقد واللهِ وضعتُ لك عندَه أَخيَّةً[2] لا يقطعُها المهرُ الأَرنُّ[3].

فلمّا بلغَ كسرى أنه بالبابِ بعثَ إليه بعضُ الجندِ فقيَّدوه وألقَوه في السجن ، فلم يزلْ مسجوناً حتى وقعَ الطاعونُ فماتَ فيه .

وفي روايةٍ لابنِ الكلبيّ : ألقاه تحتَ أرجلِ الفيلةِ

---

(1) ساباط : موضع بالمدائن .

(2) الأخيّة : عُروةٌ تربطُ إلى وتد وتُشَدُّ فيها الدابّة .

(3) المهر الأرنّ : النشيط .

فدهستْهُ حتى ماتَ .

وبلغَ مقتلُ النعمان أهلَ الحِيرةِ فحزنوا عليه ، وسرعانَ ما تحوَّلَ الحزنُ إلى موجةٍ عارمةٍ من السُّخطِ والغضبِ حينَ وجَّهَ كسرى إياسَ بنَ قبيصةَ ملِكاً عليهم .

وراحَ أصحابُ النعمان وجلساؤه يُعَبِّرونَ عن عميقِ حُزنِهم وشدَّةِ أسَفِهم على موته ، وراحَ الشعراءُ يَنْظُمونَ قصائدَ الحزن في رثائهِ .

فهذا النابغةُ الذبياني ـ وكانَ من أقربِ الناسِ مجلساً من النعمان وأحبِّهم إليه ـ يقول :

منْ يطلبِ الدهرَ تُدركْه مخالبُهُ ... والدهرُ بالوترِ ناجٍ غيرُ مطلوبِ
ما من أُناسٍ ذوي مجدٍ ومكرمةٍ ... إلاّ يشدُّ عليهم شدَّةَ الذِّيبِ
حتى يعيدَ على عمدٍ سَراتهمُ ... بالنافذاتِ من النيل المعابيبِ
إني وجدتُ سهامَ الموتِ مُعْرِضةً ... بكلِّ حتفٍ من الآجالِ مكتوبِ

وهذا الشاعرُ الكبيرُ زهيرُ بنُ أبي سُلمى يرثيه بأبياتٍ لطيفةٍ تسري إلى السَّمعِ والقلبِ كما يسري نسيمُ الصباحِ الجميلِ ، فقال :

ألم ترَ للنعمان كان بنجدةٍ   من الشرِّ لو أنَّ امرأً كانَ باقيا
فلم أرَ مخذولاً له مثلُ مُلكِهِ   أقلَّ صديقاً أو خليلاً موافيا
خلا أنَّ حياً من رواحةَ حافظوا   وكانوا أُناساً يتّقونَ المخازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهمُ   وودَّعهم توديعَ أنْ لا تلاقيا

كسرى وتَرِكَةُ النعمان

بعدَ مقتلِ النعمان استعملَ كسرى إياسَ بنَ قبيصةَ الطائيَّ على الحِيرةِ وما كانَ عليه النعمانُ ، ثم بعثَ إليه يأمرُهُ أنْ يجمعَ تَرِكةَ النعمان وما خلّفه من مالٍ وسلاحٍ ، ويرسلَ بها إليه ، وكانَ إياسُ بنُ قبيصةَ قد بلغَهُ أنَّ النعمانَ استودعَ تركتَه في بني شيبانَ عندَ هانئِ بنِ قبيصةَ بنِ هانئِ بنِ مسعود ، فبعثَ إليه يأمرُه

أن يرسلَ بها إليه، وكتبَ له مهدِّداً، وقـال : لا تُكلِّفْـني أنْ أبعثَ إليـك ولا إلى قومِـكَ بـالجنودِ تَقتـلُ المقاتلـةَ ، وتَسبي الذُّرِّيةَ .

فردَّ عليه هانئُ بنُ قبيصةَ يقولُ : إنَّ الـذي بلغَـكَ باطلٌ ، وما عندي قليلٌ ولا كثيرٌ ، وإنْ يكنِ الأمرُ كما قيلَ ، فأنا أحدُ رجلينِ :

إمّا رجلٌ استُودِعَ أمانـةً ، فهـو حقيـقٌ أن يردَّهـا على مَنِ ائتمنَه إياها ، ولنْ يُسَلِّمَ الحرُّ أمانةً .

أو رجلٌ مكذوبٌ عليه ، فليـسَ ينبغـي أن تـأخذَه بقولِ عدوٍّ أو حاسدٍ .

وكأني حين أنقلُ هذه الكلماتِ الرائعـةَ أنظـرُ إلى هانئِ بنِ قبيصةَ كنمـوذجٍ حـيٍّ للإنسـان العربـيّ الحـرّ، المعروفِ بوفائهِ وكرمه، وأدائِهِ للأمانةِ وبُعْدِه عن الخيانةِ وحِفظِهِ للعهدِ ، وثباتِهِ على المبدأِ ، وتمسُّكِه بالـميثاق ،

ولو تعرَّضَ للموتِ والهلاك ، فهـو يبـذُلُ حياتَـهُ سعيداً راضيـاً بمصيرِهِ ، على أنْ لا تُهـانَ كرامتُـهُ ، أو يخـونَ أمانتَهُ ، أو يخفرَ ذمَّته ، أو يتخلّى عن صفاتِهِ النبيلةِ الـتي فُطِرَ عليها وعُرِفَ بها .

ولَمّا بلغَ كسـرى أنَّ هـانئَ بـنَ قبيصـةَ رفـضَ أن يُسَلِّمَ الأمانةَ ، ثارَ وغضـبَ ، وهـدَّدَ وأوعـدَ ، وأرغـى وأزبدَ ، وراحَ يتوعَّدُه بشرٍّ مصيرٍ ، وأعلنَ أمامَ حاشـيتِهِ وأساورتِهِ أنْ سيستأصلُ بكرَ بنَ وائل جميعاً .

وهنا قامتْ بطانةُ الشرِّ مـن العربِ تعلنُ ولاءَهـا لكسرى ، وتتآمرُ على أبناء جنسِها ، وتقدِّمُ له الخِطـطَ والآراءَ الـتي تخدمـه للقضـاء علـى إخوتِهـا ومَـنْ يتكلَّـمُ بلغتِها ، فقامَ خادمُه المطيعُ إياسُ بنُ قبيصةَ ـ وهو الـذي عيَّنَه كسرى بـالأمسِ ملِكـاً علـى الحـيرةِ ـ فقـال : إنَّ الـملِكَ لا يصلُحُ أنْ يعصيَه أحدٌ من رعيَّتِهِ ، وإنْ تُطعْني

لم تُعلِمْ أحداً لأيٍّ شيءٍ عبرتَ وقطعتَ الفراتَ فيرَوا أنَّ شيئاً من العربِ قد كرَبَك ، ولكنْ ترجعُ وتضربُ عنهم ، وتبعثُ عليهمُ العيونَ حتى ترى غِرَّةً منهم ، ثم تُرسلُ حلبةً[1] من العجمِ فيها بعضُ القبائلِ التي تليهمْ ، فيُوقِعُونَ بهِم وقعةَ الدَّهرِ ، ويأتونك بطَلِبَتِكَ .

فقال له كسرى : أنتَ رجلٌ من العربِ ، وبكرُ ابنُ وائل أخوالُك ، فأنتَ تتعصَّبُ لهم ولا تألوهم نُصحاً .

فقال إياسُ : رأيُ الملكِ أفضلُ .

فقامَ عمرُو بنُ عديّ بنِ زيد العبادي ـ وكانَ كاتبَ كسرى وترجمانَه بالعربيةِ وفي أمورِ العربِ ـ فقال له : أَقِمْ أيُّها الملكُ ، وابعثْ إليهم بالجنودِ يكفوكَ .

---

[1] الحلبة : الدُّفعةُ من الخيل .

ثم قامَ النعمـانُ بـنُ زرعـةَ التغلـبيُّ ـ وكـانَ يحـبُّ هلاكَ بكـرِ بـنِ وائـل والقضـاءَ عليهـم لأمـرٍ كـانَ بينـه وبينهـم ـ فقـال : يـا خـيرَ الملـوكِ ، أدلُّـكَ على عـدوٍّ يطلُبُهم ، وعلى عزّةِ بكر ؟

قال : نعم .

قال : أمهلْنا حتى نقيـظَ[1]، فـإنهم لـو قـد قـاظوا تساقطوا على ماء يقالُ له : ذو قـار تسـاقُطَ الفَـراشِ في النـار ، فـأخذتَهم كيـفَ شـئتَ ، وأنـا عنـدَك إلى أنْ أكفيكَهم ، ومعَ ذلـك فـإنَّ مُطـالبيهم في ذلـك الوقـتِ كثيرٌ ، وذلك مِمّا يُوهِنُ كيدَهم ، ويكـونُ أيسـرَ علـى الملكِ هلاكُهم .

فرضيَ كسرى بهذا الرأيِ وأقرَّه ..

---

[1] القيظُ : الحَرُّ ، يريدُ حتى يدخلَ فصلُ الصيفِ .

حتى إذا حلَّ فصلُ الصيفِ جاءتْ بكرُ بنُ وائل فنزلتْ بالحِنوِ حِنوِ ذي قار ، وهي من ذي قار على مسيرةِ ليلةٍ .

فأرسلَ كسرى النعمانَ بنَ زرعةَ يُخيِّرُ بكرَ بنَ وائل في ثلاثِ خصالٍ ، فلمّا التقى بهانئِ بنِ قبيصةَ قال له : أنا رسولُ الملكِ إليكم أُخيِّرُكم ثلاثَ خصالٍ :

إمّا أنْ تُعطُوا بأيديكم فيحكمَ فيكم بما شاءَ .

وإمّا أنْ تَعرُوا الديارَ .

وإمّا أنْ تأذنوا بحربٍ .

استعدادُ العربِ للقتالِ

كانتْ هندُ بنتُ النعمان في بني سنان ، فلمّا علمتْ بمسيرِ جموعِ كسرى لاستئصالِ بكرِ بنِ وائل ، قالت تُنذِرُ العربَ :

ألا أبلغْ بني بكرٍ رسولاً فقد جدَّ النفيرُ بعنغقيرِ[1]
فليتَ الجيشَ كلَّهمُ فداكم ونفسي والسريرَ وذا السريرِ
كأنّي حينَ جدَّ بهم إليكمْ معلَّقةُ الذوائبِ بالعبورِ[2]
فلو أنّي أطقتُ لذاكَ دفعاً إذاً لدفعتُه بدمي وزيري[3]

وانتقلَ الخبرُ بينَ الناسِ حتى بلغَ بكرَ بنَ وائل ، فجمعهم هانئُ بنُ قبيصةَ ، ومضى بهم حتى انتهى إلى ذي قار فنزلَ به .

وأقبلَ النعمانُ بنُ زرعةَ حتى نزلَ على ابنِ أختهِ مُرَّةَ بنِ عمرٍو ، فقال لهم : إنكم أخوالي وأحدُ طرفيَّ ، وإنَّ الرائدَ لا يكذبُ أهلَه ، وقد أتاكم ما لا قِبَلَ لكم به من أحرارِ فارسَ وفرسان العرب ، والكتيبتان :

---

[1] العنغقير : الداهية .

[2] الذوائب : جدائل الشعر . والعبور : نجم في السماء يلي الجوزاء.

[3] الزير : ما استحكمَ فتلُه من الأوتارِ .

الشهباءُ والدَّوسَرُ[1]، وإنَّ في الشـرِّ خيـاراً ولأنْ يفتـدي بعضُكم بعضاً خـيرٌ مـنْ أنْ تصطلمـوا[2]، انظـروا هـذه الحلقةَ فادفعوها ، وادفعوا رهناً من أبنـائكم بمـا أحـدَثَ سفهاؤكم .

فقال له القومُ : ننظرُ في أمرِنا .

رابعاً ـ وقائعُها :

جلسَ هانئُ بنُ قبيصةَ ومَنْ معه من بكـرٍ ببطحـاء ذي قـار يرتقبـونَ مـن يـأتي مـن قبـائلِ بكـر ، فكــانوا يقدمونَ عليهم جماعةً إثْرَ جماعةٍ ، حتـى قدمـتْ عليهـم جماعةٌ فقالوا : سيدُنا في هذه ، فطلعَ عليهم رجلٌ أصلعُ

---

[1] الشهباء والدوسر : كتيبتان حربيتان كـان كسرى قـد وضعَهمـا تحت تصرُّفِ النعمان .

[2] تصطلموا : تُستأصلوا .

الشعرِ ، عظيمُ البطنِ ، مُشْرَبٌ حُمرةً ، فإذا هو حنظلةُ ابنُ ثعلبةَ بنِ سيارٍ العِجْلي ، فاستقبلوه فرحينَ ، وقالوا : يا أبا معدانَ ، قد طالَ انتظارُنا ، وقد كرهنا أنْ نقطعَ أمراً دونَك ، وهذا ابنُ أختِكَ قد جاءنا ، والرائدُ لا يكذبُ أهلَه ، وهذا هانئُ بنُ قبيصةَ يَهِمُّ بركوبِ الفلاةِ ، ويقولُ لنا : لا طاقةَ لكم بجموعِ الملك .

قال حنظلةُ : فما الذي أجمعَ عليه رأيكم ، واتّفقَ عليه ملؤُكم ؟

قالوا : إنَّ اللحى[1] أهونُ من الوهى ، وإنَّ في الشرِّ خياراً ، ولأنْ يفتدي بعضُنا بعضاً خيرٌ منْ أنْ نصطلمَ[2] جميعاً .

---

[1] اللحى : إعطاءُ المال ، المعنى : أنَّ فقدَ المالِ خيرٌ من الهلاك .

[2] نصطلم : نُستأصَل .

فقال حنظلةُ : قَبَّحَ اللهُ هذا رأياً !! لا تجـرُّ أحـرارُ فارسَ أرجلَها ببطحاء ذي قار وأنا أسمعُ هذا الصوتَ .

ثم أمرَ بقبَّتِهِ فضُربـتْ بـوادي ذي قـار ، ثـم نـزلَ ونزلَ الناسُ معه ، واجتمعوا حولَه يسمعونَ ما يقـولُ ، فجعل ينظرُ فيهم ويتأمَّلُ وجوهَهم ثم قال : لا أرى غيرَ القتالِ ، فإنّا إنْ ركبنا الفلاةَ مِتْنـا عطشـاً ، وإنْ أعطينـا بأيدينا تُقتَلُ مقاتلتُنـا ، وتُسبى ذراريْنـا .. ثـم نظـرَ إلى هانئِ بنِ قبيصةَ وقال مطمئناً : يا أبا أُمامة ، إنَّ ذمتَكـم ذمَّتُنا عامة ، وإنه لن يوصَلَ إليك حتى تفنى أرواحُنـا ، فأخرجْ هذه الحلقةَ ففرِّقْها بينَ قومِكَ ، فإنْ نظفـرْ فـتردُّ عليك ، وإنْ نَهلِكْ فالأسـلحةُ والـدروعُ أهـونُ مفقـودٍ بعدَنا وبعدَك .

وعند الطبري : فلمّا دنـتْ جيـوشُ الفرسِ انسـلَّ قيسُ بنُ مسعودٍ ليلاً فأتى هانئاً ، فقال له : أعطِ قومَك

سلاحَ النعمان فيقوَوا ، فإنْ هلكوا كان تبعاً لأنفسِهم ، وكنتَ قد أخذتَ بالحزمِ ، وإنْ ظفروا ردُّوه عليك .

ففعل وقسَّمَ الدروعَ والسلاحَ في ذوي القوى والجلدِ[1] من قومِهِ .

ثم نظرَ حنظلةُ إلى النعمان بنِ زرعةَ وقال له : لولا أنَّكَ رسولٌ لَمَا أُبْتَ[2] إلى قومكَ سالماً .

فرجعَ النعمانُ إلى أصحابهِ فأخبرَهم بما ردَّ عليه القومُ .

وأخذتِ الأمورُ تتأزَّمُ ، والشرُّ يتفاقمُ ، وأصبحَ القتالُ أمراً محتَّماً ، وباتَ العربُ متيقِّظين يرقُبونَ أعداءَهم ، ويرصُدونَ تحرُّكاتِهم ليُثْبِتوا وجودَهم ، ويُبرهنوا على قدرتِهم في الدفاع عن أنفسِهم وبلادِهم ،

---

[1] ذوو الجلد : الأقوياء .

[2] آبَ : رجعَ .

وعدمِ التفريطِ بشبرٍ واحدٍ من أرضِهِم ، أوِ الاستسلامِ لعدوِّهم ، أو الخضوعِ لأمرِهِ وغطرستِهِ ، فكانوا لا يَبيتونَ إلاّ والسلاحُ في أيديهم ، وهم مستعدُّونَ للردِّ على عدوِّهم إذا ما قامَ بمهاجمتِهم أو مباغتتِهم .

اجتماعُ مُمَثِّلي القبائل

بلغتْ أصداءُ زحفِ جموعِ الفُرْسِ واستعدادِهم لقتالِ بكرٍ والقضاء عليها بعضَ القبائلِ العربية ، التي أحسَّتْ بالشعورِ القوميّ ، ورابطةِ الدَّمِ واللغةِ والمصيرِ المشتركِ ، فتناسَتْ أحقادَها ، وتجاوزتْ خلافاتِها ، وطرحتْ عداواتِها ، ورأتْ أنْ توحِّدَ صفَّها ، وتجمعَ كلمتَها ، وتشحذَ قوتَها ، وتقفَ صفّاً واحداً أمامَ الخطرِ الفارسيِّ الذي جاءَ لا ليهدِّدَ القبائلَ البكريّةَ فحسب بل ليُهدِّدَ الوجودَ العربيَّ بأسرِهِ من مشرقِهِ إلى

مغربه ، ويستأصلَه ويقضي عليه قضاءً لا تقومُ له بعـدَه قائمةٌ .

ولربّما كانَ هـذا العـدوانُ الفارسيُّ خيراً لجميعِ قبائلِ العربِ ، لأنه السببُ في احتمـاعِهم بعد تفـرُّقٍ ، وتآلُفِهم بعدَ تمزُّقٍ ، ولقائِهم بعـدَ تشتّتٍ ، وتوحيدِهـم بعدَ تفكُّك ، ولَمِّ شمِلِهم تحتَ قيادةٍ عربيةٍ موحَّدة .

وكانَ من أبرزِ الشخصياتِ العربيةِ يومئذٍ ، وخيرةِ الفرسان والقياديّينَ ثلاثةٌ وهم :

حنظلةُ بن ثعلبةَ العِجلـي ، وهـانئُ بـنُ قبيصـةَ بـنِ هانئِ بنِ مسعودٍ الشيبانيّ ، وبكرُ بـنُ يزيـدَ بـنِ مسـهرٍ الشيبانيّ، وإليهم يعودُ فضلُ توحيدِ الصَّفِّ، والتخطيـطِ السليمِ لقيـادةِ المعركـةِ الفاصلـةِ والمصيرية ، ولا ننسى الدورَ البطوليَّ ، والإحساسَ بالشعورِ القوميّ الذي أخذَ يتحرَّكُ في نفوسِ بعضِ الشخصياتِ القياديـةِ العربيـةِ في

الجيشِ الفارسي ، والنخوةَ الأبيّةَ التي سَرَتْ إليهم وهم يتولّونَ القيادةَ في جيشِ فارسَ ضدَّ إخوانِهم وبني جنسِهم من العربِ .

لقد رأى هؤلاء الفرسانُ أنَّ الواجبَ القوميَّ يُحتِّمُ عليهم أن ينضمُّوا إلى أبناء عمومتِهم من العرب ، ويقاتلوا إلى جانبِهم ضدَّ العدوّ المشترك .

فهذا قيسُ بنُ مسعودٍ الشيبانيُّ ـ وكان عاملَ كسرى على الأُبُلَّة[1] ينسلُّ في جوفِ الليلِ ، وتحت جنحِ الظلامِ ، فيأتي قومَه بني شيبانَ ويطلعُهم على أسرارِ جيشِ فارسَ ، ويشرحُ لهمُ الخطَّةَ الحربيةَ التي أعدُّوها لقتالِ يومِ غدٍ ، ولم يقفْ به الأمرُ هنا ، بل أخذَ يشجِّعُ القومَ ويثيرُ حماسَهم للقتال ، ويحثُّهم على

---

[1] الأُبُلَّة : بلدة على شاطئِ دجلة .

الصبرِ والثباتِ في وجهِ المعتدينَ ، ثم رجعَ إلى موقفِـهِ في معسكرِ الجيشِ الفارسيّ دونَ أن يتنبَّهَ لأمرِهِ أحدٌ .

وكانتْ قبيلةُ إيادٍ العربية تقاتلُ تحتَ رايةِ فارسَ ، فأصابتْ رجالَها النخـوةُ والشـهامةُ العربيـة ، فاختـاروا منهم رجلاً جريئاً وأرسلوه تحت ظلامِ الليـلِ إلى القـادةِ العربِ من بكرِ بنِ وائل ليقولَ لهم : أيُّ الأمرين أحـبُّ إليكم يا بني بكـر ؟ أنْ تنفصـلَ الآنَ جمـوعُ إيـادٍ تحـتَ الليل فتُفارقَ معسـكرَ الفـرسِ ، أو أنْ تُقيـمَ وتبـادرَ إلى الفرارِ حينَ تُلاقونَ القومَ ؟

وأخـذَ القـادةُ البكريـونَ يدرسُـونَ الموقــفَ وقـد ارتفعـتْ معنويّـاتُهم القتاليـةُ حـينَ علمـوا أنَّ إخوانَهــمُ العربَ الذين هم تحتَ رايةِ فارسَ سوفَ يُقاتلونَ معهــم جموعَ الفرسِ ، وقدِ اطَّلعـوا أيضـاً علـى خِطَّـةِ عدوِّهـم فازداوا قوةً ومَنَعَةً ، وأصبحوا في شـوقٍ للقتالِ وخوضِ

المعركـةِ المصيريّـةِ ، بعـدَ أنْ وضعـوا خطـةً مفادُهـا أنْ تقومَ قبيلةُ إيادٍ بهزيمةٍ مدبَّرةٍ عنـدَ احتـدامِ القتـال ولقـاء الفرسان .

ومن حُسْنِ حظِّ البكريين أيضاً ، بل ومن دواعـي الفخـرِ والاعـتزازِ بالعاطفـةِ العربيـةِ ، أنَّ جماعـةً مـن الأسرى من قبيلـةِ تميـمٍ العربيـة ، وعددُهـم يقـرُبُ مـن مائتي أسيرٍ ، وكانوا أسرى عندَ بني بكـرٍ ، فلمّـا أحـسَّ هـؤلاء الأسـرى بـأنَّ حربـاً تُهـدِّدُ بـني بكـرٍ ، وأنهـم يستعدُّون لتلك الحربِ ، دفعتْهم شهامتُهم للاشـتراكِ في تلك الحربِ ، وقالوا : يا بـني بكـر ، خَلُّوا عنّـا نقـاتلْ معكم .. ثم أرادوا أن يؤكِّدوا لهم أنهم لنْ يغدروا بهـمْ ولنْ يهربوا من الأسرِ لأنَّ مصيرَهم مشتركٌ فقالوا : إنّما نُدافعُ بذلك عن أنفسِنا .

فردُّوا عليهم قائلينَ : ولكنّنا نخافُ ألاّ تُناصحونا ،

ونخشى أن تغدروا بنا .

فقال الأسرى التميميون : فدعونا نتخذُ علاماتٍ تدلُّ علينا عندَ اللقاء حتى ترَوا مكانَنا وصبرَنا وثباتَنا .

ووافقَ البكريون على اشتراكِ الأسرى معهم في القتال ، ونيلِ شرفِ الدفاعِ عن الوجودِ العربيِّ ، والشرفِ العربي ، والنخوةِ العربيةِ .

وكان البكريونَ العربُ قد أعدُّوا كميناً خلفَ مواقعِ الجيوشِ الفارسيةِ ، وجعلوا قيادتَه ليزيدَ بنِ حمارٍ السكوني ، وهو الذي وضعَ خطةَ إعدادِ الكمين ، وذلك لتأمينِ الماء ومنعِ الفُرْسِ من الانتفاعِ به ، لأنَّ الماءَ في ذلك الوقتِ هو المادةُ الفعّالةُ في تزويدِ المقاتلين ، ودفْعِ حرِّ القيظِ ، وشدّةِ الظمأِ ، ورفعِ روحِهمُ المعنويةِ خاصةً وأنَّ الفصلَ صيفٌ والطقسَ حارٌّ ، والإنسانُ أحوجُ ما يكونُ للماء في ذلك الوقتِ .

إثارةُ حماسِ المقاتلين

في صبيحةِ اليوم التالي للاجتماعِ وقفتِ القبائلُ العربيةُ وقد رفعتْ راياتِها ، ووقفَ كلُّ زعيمٍ من زعمائِها أمامَ قبيلتِهِ ، ووقفتِ النساءُ خلفَ الرجالِ على هوادجهنَّ يُثِرْنَ حماسَهم ، ويُلْهِبْنَ مشاعرَهم ، ويُشجِّعْنَهم على الثباتِ في وجهِ العدوّ ، والدفاعِ عن العِرْضِ والأرضِ ، والذّودِ عن الحِمى والشرفِ والأهلِ .

وتقدّمَ حنظلةُ العِجليُّ ليقدّمَ مثَلاً رائعاً في البطولةِ والتضحيةِ والفداء ، فأمرَ أن تُضرَبَ له خيمةٌ ، وأقسمَ أنْ لا يُغادرَ مكانَه حتى تطيرَ الخيمةُ ، ثم قامَ إلى رواحلِ نسائِهِ فقطعَ الوُضُنَ[1]، فجعلتِ النساءُ يتساقطْنَ

---

[1] الوُضُن : أحزمةُ الرواحل .

علىٰ الأرضِ من فوقِ هوادجِهنَّ ، وأخذَ يُلْهِبُ حماسَ الرجالِ ويقولُ : (أيُّها القومُ ، لِيُقاتلْ كلٌّ منكم عن حليلتِهِ[1] حتى الموتِ ، وأنا في مقدّمتِكم) .

فجعلَ الرجالُ والفرسانُ يقطعونَ وُضُنَ هوادِجِ النساء ويَحْذُونَ حَذْوَه ، وقد سَرَتْ في نفوسِهمْ روحُ العزّةِ والكرامةِ ، وامتلأتْ قلوبُهم بالنخوةِ والشهامة وأقسموا أنْ يُدافعوا عن نسائِهم وأعراضِهم ، ولا يفرُّوا من أرضِ المعركةِ ، أو يكشفوها لعدوِّهم فتكونَ النساءُ لقمةً سائغةً يسهُلُ أسرُهُنَّ واختطافُهنَّ .. وهذا أصعبُ ما يُصابُ به العربيُّ أنْ يرى نساءَه يُسبَينَ أمامَه ، لذلك ازدادَ الرجالُ نخوةً وحماسةً ، وصمّموا علىٰ مضاعفةِ الجهدِ ، والدفاعِ عن العِرْضِ حتى النصرِ أو الموتِ .

---

[1] حليلةُ الرجل : زوجتُه .

وهذا هانئُ بنُ قبيصةَ الشيباني يقول : (يا قــومُ ، مهلكٌ مقدورٌ خيرٌ من نجاء معرورٍ[1] ، وإنَّ الحــذَرَ لا يدفعُ القدَرَ ، وإنَّ الصبرَ من أسبابِ الظفرِ ، المنيّةَ ولا الدنيّةَ ، واستقبالُ الموتِ خيرٌ من استدبارِه ، والطعنُ في الثغرِ[2] أكرمُ من الطعنِ في الدُّبرِ[3] ...

يا قومُ ، جدُّوا فما من الموتِ بُدٌّ ، فتحٌ لو كانَ لـه رجالٌ ، أسمعُ صوتاً ولا أرى قوماً ، ويا آلَ بكرٍ شُدُّوا واستعدُّوا ، وإلاّ تشدُّوا تُرَدُّوا) .

وقام شريكُ بنُ عمرِو بنِ شراحيلَ فقال : (يا قومُ ، إنّما تهابونَهم أنّكم ترَونَهم عندَ الحِفاظِ[4]

---

(1) معرور : مُعاب .

(2) الثغر : الوجه .

(3) الدبر : القفا .

(4) الحفاظ : القتال .

أكثرَ منكم ، وكذلك أنتم في أعينِهم ، فعليكم بالصبرِ ، فإنَّ الأسنّةَ[1] تُردي الأعنّةَ[2]، يا آلَ بكرٍ ، قدُماً قُدُماً).

وقامَ حنظلةُ بنُ ثعلبةَ مرَّةً أخرى فقال :

قد جدَّ أشياعُكم فجِدُّوا ... ما علّتي وانا مؤدٌّ جَلْدُ[3]
والقوسُ فيها وترٌ عُرُدُّ ... مثلُ ذراعِ البِكرِ أو أشدُّ[4]
قد جعلتْ أخبارُ قومي تبدو ... إنَّ المنايا ليس منها بدُّ
هذا عميرٌ تحته ألَدُّ ... يقدُمُه ليس له مردُّ
حتى يعودَ كالكُميتِ الوردُ ... خلّوا بني شيبانَ فاستبدُّوا
نفسي فداكم وأبي والجَدُّ

وقامَ ابنُه يزيدُ بنُ حنظلةَ بنِ ثعلبةَ فقال :

---

(1) الأسنّة : الرماح .
(2) الأعنّة : جمع عِنان ، وهو لجامُ الفرَس .
(3) مؤدٍّ : ذو أداةٍ من السلاحِ تامّة ، يريدُ أنه لا عذرَ له .
(4) عردّ : شديد . والبِكر : الناقة .

مَنْ فرَّ منكم فرَّ عن حريمِهِ وجارِهِ وفرَّ عن نديمِهِ
أنا ابن سيّارٍ على شكيمِهِ إن الشراكَ قُدَّ من أديمِهِ[1]
وكلُّهم يجري على قديمِهِ من قارحِ الهُجنةِ أو صميمِهِ[2]

وقال عمرُو بنُ جبلةَ اليشكري :

يا قومُ لا تَغررْكمُ هذي الخِرقْ ولا وميضُ البيضِ في الشمسِ برَقْ
من لم يقاتلْ منكمُ هذا العَنَقْ فجنِّبوهُ الراحَ واسقُوه المرَقْ[3]

هذا ... وكانتِ النساءُ قد وقفنَ خلفَ الرجالِ ، وقد برزْنَ من هوادِجهنَّ وأخذنَ يُشجِّعنَ الرجالَ على الصبرِ والثباتِ ، والدفاعِ عن الأهلِ والعِرْضِ ، فقالتِ امرأةٌ منهنّ :

---

(1) الشراك : سيرُ النعلِ . قُدَّ : قُطِع . الأديم : الجلد المدبوغ .

(2) القارح : الحصان . الهجين : المولود من جنسين .

(3) العنق : الجماعة .

إنْ تَهزِموا نُعـانـقْ ونفرشُ النمارقْ[1]
أو تُهزَموا نُفارقْ فراقَ غيرِ وامقْ[2]

بدءُ القتال

ودَنَتْ ساعةُ الصِّفْـر ، واصطـفَّ الجيشـان ، وقـد تقدَّمَ جيشَ الفرسِ بعضُ الفيلةِ على عادةِ الفـرسِ ، لأنَّ من شأنِ الفيلةِ إخافةَ الخيـولِ ، وكـانَ عنـدَ بـني شـيبانَ رجلٌ يقالُ له : ربيعةُ بنُ غزالةَ السكوني ومعـه قومُـه ، فقال : يا بني شيبانَ أما إنـي لـو كنـتُ منكـم لأشـرتُ عليكم برأيٍ مثلِ عروةِ العلم .[3]

فقالوا : أنتَ وا لله مِنْ أو سطِنا فأشرْ علينا .

---

[1] النمارق : الوسائد .

[2] الوامق : المحبّ .

[3] عروةُ العلم : هو العلم الذي يوثَقُ به .

فقال : لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنُشابها[1]، ولكنْ تكردسوا[2] كراديسَ ، فإذا أقبلوا على كردَوسٍ شدَّ الآخرُ .

فقالوا : قد رأيتَ رأياً .

ولَمّا دنا الفريقان قامَ حنظلةُ بنُ ثعلبةَ فقال : إن النشابَ الذي مع الأعاجمِ يفرِّقُكم ، فإذا أرسلوه لم يُخطِئْكُم ، فعاجلوهم اللقاءَ ، وابدؤوهم بالشدة .

وكانَ حنظلةُ بنُ ثعلبةَ على الميمنةِ يقودُ بني عجل بإزاء جنابزين ، وبنو شيبانَ في الميسرةِ بإزاء كتيبةِ الهامرز وعليهم بكرُ بنُ يزيدَ بنِ مسهّر ، وأفناءُ بكرٍ في القلبِ وعليهم هانئُ بنُ قبيصةَ .

وتقدَّمَ فرسانُ العربِ من فرسانِ القرسِ المدعَّمين

---

(1) النشابُ : النبل .

(2) الكردوس : الكتيبةُ من الجيش .

بالفيلةِ وبأحدثِ ما عرفتِ الدُّنيا يومئـذٍ مـن قـوةٍ وسلاحٍ ، ولكنَّ سلاحَ الحقِّ والدفاعِ عن النفسِ ، والإيمان بالقضيةِ العادلةِ التي خرجَ من أجلها فرسانُ العربِ كانت أقوى من سلاحِ الفرس وأشدَّ فتكاً وأكثرَ فاعليةً ، ولعلَّ المشهدَ التالي يُعطينا صورةً صادقةً للموقفِ ، ويترجمُ لنا القولَ إلى عملٍ .

في هذه اللحظاتِ الحاسمةِ خرجَ من وسطِ جيوشِ الفرسِ ، ومن كتيبةِ الهامرز فارسٌ في أذنيه دُرَّتان يتحدّى الناسَ ، ويطلبُ المبارزةَ ويقولُ : مَرْد ومَرْد .

فكأنَّ القومَ لم يفهموا ما يريدُ .

ثم ضربَ فرسَهُ في وسطِ الميدان ، وراح يصولُ ويجولُ ، وينادي بالفارسيّة : مَرْد ومَرْد .

فقامَ يزيدُ بنُ حارثةَ اليشكريُّ فقال : ما يريدُ هذا الفارسُ .. وماذا يقول ؟!

فأجابهُ بعضُهم : إنه يدعو إلى البِرازِ ، ويقول : رجلٌ لرجلٍ .

فقال يزيدُ : وأبيكم لقد أنصفَ .

ثمَّ اندفعَ نحوَه كالسهمِ ، وساوره[1] لحظةً ، ثم شدَّ عليه بالرمحِ فأصابَهُ ودقَّ صلبَه ، وجندلَه على الأرضِ صريعاً ليسَ فيه حركةٌ ولا نفَسٌ ، ثم انقضَّ عليه وجلسَ على صدرِه وأخذَ حُلِيَّهُ وسلاحَه ، وعادَ إلى مكانِهِ في صفوفِ قبيلتِهِ (يشكر) وقد ملأ العيونَ إعجاباً والقلوبَ فرحاً وغبطةً وسروراً .

في حين أُصيبَ الفرسُ بالذهولِ وخيبةِ الأملِ لِمَا رَأَوْا من اللحظاتِ الأولى للمعركةِ مصرعَ واحدٍ من فرسانِهم ، الأمرُ الذي جعلَ قائدَ ميمنتِهم الهامرزَ يثورُ

---

[1] ساوره : واثبه .

ويغضبُ ، ويبرزُ إلى ميدان المعركةِ ويقولُ : مَرْد ومَرْد .. فبرزَ له يزيدُ بنُ حارثةَ اليشكريُّ الذي أقبلَ نحوَه وجعلَ يُساورُه ويناجزُه ليتمكَّنَ منه بضربةٍ كانتِ القاضيةَ .

فكانَ هذا المشهدُ البطوليُّ الرائعُ بدايةَ نصرٍ ، وفاتحةَ خيرٍ للعربِ الذينَ ارتفعتْ معنوياتُهمُ القتاليةُ ، وأصبحَ كلُّ فردٍ منهم كأنَّه جيشٌ مظفَّرٌ منتصرٌ ، في حين خارَتْ قوى الفرسِ ، وأحسُّوا بالضعفِ والخَوَرِ ، وأُصيبوا بالوهنِ والخسرانِ ..

وقيلَ : إنَّ الذي برزَ للهامرزِ وقتلَه الحارثُ بنُ شريك .

وانطلقتْ صيحاتُ العربِ هنا وهناك ، وارتفعتْ زغاريدُ النساء يُشجِّعْنَ الرجالَ ، ويُثِرْنَ فيهمُ الحماسَ ، وأعادَ قائدُهم حنظلةُ بنُ ثعلبةَ وصيَّتَه لقومِهِ وقال :

يا آلَ بكرٍ ، لا تقفوا لعدوِّكـم حتـى يُمْطِرَكـم بنبالِـهِ ، ويمزِّقَ جمعَكم بنُشَّابهِ ، واحملوا على جموعِهِ حملةً واحدةً صادقـةً ، وكُـرُّوا علـى الأسـاورةِ وأبيدوهـم برمـاحِكم وسيوفِكم .

فاندفعَ الأبطالُ بكلِّ شجاعةٍ واستبسالٍ ، وأخـذوا يُنزلونَ بالفُرْسِ كلَّ بأسٍ وشدّةٍ ، والتقى الجيشـان لأوَّلِ مرَّةٍ في تـاريخِ العـربِ والفـرْسِ ، وحملـتْ ميسـرةُ بكـرٍ بقيادة حنظلـةَ العجلـي علـى ميمنـةِ الفـرسِ ، وكذلـك ميمنةُ بكرٍ على ميسرةِ الفرسِ الذين خارتْ قواهم بمقتلِ فارسَيْن كبـيرينِ مـن فرسـانِهم ، والتحـمَ قلـبُ الجيـشِ العربي بقلبِ الجيشِ الفارسيّ وسـطَ هتافـاتِ وزغـاريدِ النساء العربياتِ اللواتي جعلنَ مـن كـلِّ فارسـيّ عربـي جيشاً لَجِباً قوياً .

وفي وسطِ المعمعةِ، والمعركةُ قويةٌ ضاريـةٌ، ووسْطَ

صيحـاتِ الفرسـان ، فُوجِئَ فرسـانُ الفـرسِ بـالكمين البكريِّ الذي دُبِّرَ أمرُه ليلاً بقيادةِ يزيدَ السكوني الـذي شدَّ بفرسانهِ علـى جيشِ الفـرسِ شـدَّةَ رجـلٍ واحـدٍ ، وجعلوهـم في الوسـط وأخـذوا يضربونَهـم بسـيوفِهمُ الظامئةِ ، حتى جعلوهم حيارى من أمرِهـم لا يَدْرونَ من أينَ يأتيهمُ الضـربُ وكيف يخرجُ عليهم فرسانُ العـربِ ويذهلونَهـم ويفـاجئونَهم بمـا لم يكونـوا لـه يحتسبون ، والذي أطـارَ صوابَهـم مقتـلُ جنـابزين قـائدِ ميسـرتِهم ، الـذي قتلـه حنظلـةُ العجلي أثنـاءَ التحـامِ الفرسان والتقاء الفريقين .

هذا والمعركةُ على أشُدِّها ، وقـدِ ارتفعـتْ حـرارةُ النهارِ وكانَ شديدَ القيظ ، واحتـاجَ مقـاتلو الفـرسِ إلى الماء ، فلم يستطيعوا الوصولَ إليه بسببِ الحِصارِ المحكَـمِ الذي فرضَه البكريون حولَ المـاء ليحُولَ دونَ وصولِ

الفرسِ الذين اشتدَّ بهمُ العطشُ ، فخارتْ قُواهم ، وانحطَّتْ معنوياتُهم ، وطاشَتْ عقولُهم ، وضَعُفَتْ شوكتُهم ، ثم اكتملَ ضعفُهم حين رأوا قبيلةَ إيادٍ تنفِّذُ الخِطَّةَ المتفقَ عليها ، وهي الهزيمةُ المدبَّرةُ ، فيئسوا من النجاة ، وأخذوا يبحثونَ عن سبيلٍ للهربِ فلا يجدونَ سوى الرماحِ تخترقُ صدورَهم ، والسيوفِ تدقُّ أعناقَهم ، والمنايا تنوشُهم ، والموتُ يتلقّاهم .

ولم يكَدِ النهارُ ينتصفُ حتى أُصيبَ الفرسُ بهزيمةٍ منكَرةٍ لم يُصابوا بمثلِها من قبلُ ، حتى مع أكبرِ قوةٍ توازيها.. وانطلقَ العربُ البكريّون في إثْرِهم يُطاردونَهم ويقتلونَهم إلى الليل ولا ينظرونَ إلى الغنائمِ والأسلابِ ، لا ينظرونَ إلاّ إلى القضاء على غطرسةِ الفرسِ وتأديبِهم وكسرِ شوكتِهم ، وتلقينِهم درساً بالغَ القسوةِ والقوةِ والعنفِ .

هذا .. ولم يزلِ العربُ البكريّونَ يلاحقـونَ فُلـولَ الفرسِ حتى بلغوا السَّواد من أرضِ العراق ، والبكريّـونَ خلفَهم يُنزِلونَ بهمُ الضرَباتِ القاسيةَ حتى صباحِ اليـومِ التالي ، الذي أسفرَ عـن نصرٍ عربيٍّ مـؤزَّرٍ يدعـو إلى الفخرِ والاعتزاز ، وعـن هزيمـةٍ فارسيّةٍ منكَـرةٍ متوَّجـةٍ بالخزيِ والعارِ ، وقاضيةٍ علـى الغطرسـةِ الفارسيةِ الـتي كـانتْ تنظـرُ إلى العـربِ نظـرةَ اسـتصغارٍ واحتقـارٍ وضعفٍ .

وياله من درسٍ فيه العظةُ والعِبرةُ ..!!

خامساً ـ نتائجُها :

أسفرتِ المعركةُ في يومِ ذي قار عن نتـائجَ مذهلـةٍ أذهلـتِ البكريـين أنفسَـهم وأفقـدتِ النـاسَ صوابَهـم ، وجعلتْهم حيارى من أمرِهم وباؤوا بفشلٍ ذريعٍ وهزيمـةٍ

منكَرةٍ بعدَ أنْ فقدوا خيرةَ فرسانِهم منذ اللحظاتِ الأولى للمعركةِ ، ومن اللقاء الأول .

وما إن انتصفَ النهارُ حتى جدُّوا في الهربِ طالبينَ النجاةَ ، فقُتلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ وأُسِرَ عددٌ كبيرٌ ، وكان من جملةِ الأسرى النعمانُ بنُ زرعةَ الذي كانَ حريصاً على القضاء على بني بكرٍ ، ولعبَ دوراً كبيراً بإقناعِ كسرى بضرورةِ توجيهِ جيشٍ كبيرٍ لتأديبِ العربِ الذين خرجوا عن طاعتِهِ وتمرَّدوا عليه .

وها هو ذا ينالُ عقابَهُ العادلَ جزاءَ خيانتِهِ وتآمرِهِ مع الأجنبيّ على استئصالِ قومِهِ ، لقد رأى الدائرةَ تدورُ عليه ، ومكرَه يحيقُ به ، فاشتدَّ هارباً وللنجاةِ طالباً ، فتبعَهُ مَرثدُ بنُ الحارثِ فأهوى له طعناً ، فسبقه النعمانُ بصدرِ فرَسِهِ فأفلتَ منه ، وفي ذلك يقول مرثدُ :

وخيلٌ تبارى للطعان شهدتُها فأغرقتُ فيها الرمحَ والجمعُ مجحمُ

وأفلتَني النعمانُ فوتَ رماحِنا وفوقَ قطاةِ المهرِ أزرقُ لهذمُ[1]

ولكنَّ أسودَ بنَ بجيرٍ العجلي تبعه وتمكَّنَ من أسرِهِ ، وأصبحَ النعمانُ بين يديِ الأسودِ ذليلاً صاغراً ، وقد حاقَ به مكرُه ، وذاقَ وبالَ أمره ، وجزاءَ خيانتِهِ ، ولكنَّ آسرَه تحرَّكتْ في نفسِهِ عاطفةُ القربى نحوَه فجزَّ ناصيتَه وأطلقَ سراحَه ، وبذلك يظلُّ النعمانُ بنُ زرعةَ مستعبَداً ذليلاً لآسرِه على ما كانتْ عليه عادةُ العربِ ، قال شاعرُهم :

كم من أسيرٍ فككْناه بلا ثَمَنٍ وجزِّ ناصيةٍ كنّا مواليها

أمّا ما كانَ من أمرِ إياسِ بنِ قبيصةَ الذي جعله كسرى ملكاً على الحِيرةِ بعدَ النعمان بنِ المنذرِ ، وعيَّنَه قائداً أعلى لجيشِهِ في حربِهِ ضدَّ إخوانِهِ وبني عمومتِهِ من

---

[1] القطاةُ : موضع الردف من الدابة . اللهذم : كلُّ شيءٍ قاطعٍ من سيفٍ أو رمحٍ .

العربِ ، فلمّا رأى كفّةَ الحربِ مائلةً من الدقـائقِ الأولى لصالحِ العربِ ، وأنَّ دائرةَ السَّوء ستدورُ عليه وسيقطفُ هو ثمراتِها المرَّةَ ، لاذَ بالفرار ، وكانَ أوّلَ مـن انصـرفَ إلى كسرى بالهزيمةِ ، وكانَ كسـرى لا يأتيهِ أحـدٌ بنبـأِ هزيمةِ جيشٍ إلاّ عاقبَه بنزعِ كتفيهِ ، فلمّا قدمَ عليه إيـاسٌ سألَه عن أنباء القتالِ ، فكذبَ عليـه وقـال لـه : هزمْنـا بكرَ بنَ وائل ، فأتيناك بنسائِهم .

ففرحَ كسرى بهذا النبأِ ، وأمرَ له بعطاء وكساء .

ثم أرادَ إيـاسُ بـنُ قبيصـةَ أنْ يهـربَ مـن كسـرى لينجوَ بنفسِهِ ، فاستأذنَه بزيارةِ أخيه ، واختلـقَ أُكذوبـةً فقال للملك : إنَّ أخـي قيسَ بـنَ قبيصـةَ مريـضٌ بعيـنِ التمر[1]، فأردتُ أنْ آتيَه .

---

[1] عينُ التمر : بلدةٌ قريبةٌ من الأنبار غربي موضع الكوفة .

فأذِنَ له كسرى ، فركبَ فرسَه ولحقَ بأخيه .

ثم قدِمَ على كسرى رجلٌ من أهلِ الحِيرةِ فسألَ : هل دخلَ على الملكِ أحدٌ ؟

فقيلَ : نعم ، إياسُ بنُ قبيصةَ .

فقال : ثكلتْ إياساً أمُّه .. وظنَّ أنه أخبرَ كسرى بحقيقةِ أنباء المعركةِ ، فدخلَ عليه وحدَّثَه بالهزيمةِ المنكَرةِ التي لحقَتْ بهم ، وبمقتلِ خِيرةِ رجالِهم وفرسانِهم ، فغضبَ كسرى وأمرَ به فنُزِعتْ كتفاهُ ... ومن يدري ماذا كانَ يفعلُ بإياسٍ إنْ أدركَه وألقى عليه القبضَ ؟!

ولعلَّ من أهمِّ نتائجِ معركةِ ذي قار خروجَ العربِ منها منتصرين وقد برهنوا على شجاعتِهم واجتماعِهم بعدَ التفرُّق ، وتجاوُزِ الأحقادِ والخلافات ، واجتماعِ الكلمةِ ، وتوحيدِ الصفِّ ، للوقوفِ في وجهِ العدوِّ المتغطرسِ ، وكسرِ شوكتِهِ ، وردِّ سهمِهِ إلى نحرِه ،

وتلقينِهِ درساً بالغَ القسوةِ ، وتعليمِهِ أنَّ الإنسانَ العربيَّ أَبيٌّ كريمٌ شهمٌ ذو نَجدةٍ ومروءةٍ ، يأبى الضيمَ ، ويرفضُ الذُّلَّ ، ويثورُ على الاستغلالِ والاستعبادِ ، ويكونُ عوناً لأخيهِ العربيِ ولو كانَ في أقصى الأرضِ .

لقد كانَ النصرُ العربيُّ في ذي قار نتيجةً طبيعيةً لالتقاء الشعورِ القوميِّ وصحوةِ الضميرِ العربيِّ بعدَ سُباتٍ عميقٍ ، ومقدمةً للوحدةِ العربيةِ الشاملةِ إنْ كُتِبَ لها أنْ تجتمعَ وتتوحَّدَ .

لقد برهنَ العربُ عن قدراتِهِمُ الكامنةِ ، وإمكاناتِهِمُ العظيمةِ ، وأثبتوا للدنيا بأسرِها أنَّهم أمةٌ قادرةٌ على إثباتِ وجودِها ، والدفاعِ عن ذاتِها ، وأنها تستطيعُ أن تتبوَّأَ أعلى المناصبِ وأرفعَها ، وتتسلَّمَ قيادةَ الدنيا بأسرِها .

ولعلَّ أكبرَ دليلٍ على ذلك حين دخلوا الإسلام ،

وبـايعوا نبيَّهـمُ العربـيَّ ﷺ ، واجتمعـوا عليـه ، والتفُّـوا حولَه ، ووضعوا مسـتقبلَهم ووجودَهـم ومصـيرَهم بـين يديه ، فجعلَ منهم أمةً قويةً ذاتَ مكانـةٍ وسيادةٍ ، بـل وفي طليعةِ الأممِ جميعاً .

ومن نتائجِ المعركةِ : أنَّهـا أسـفرتْ عـن القـدراتِ العربيةِ الكامنةِ التي سرعانَ ما تفجَّرتْ ، وكشفتْ عـن مواهـبَ عظيمـةٍ استطاعتْ أن تُخطِّـطَ لمعركـةٍ سـريعةٍ وخاطفةٍ ، ويتمثَّلُ ذلك في ثباتِ القـائدِ العربـيِّ الذكـيِّ الماهرِ حنظلةَ بنِ ثعلبة العجلي الذي يُـدرِكُ قـوةَ الفـرسِ وبأسَهم وكثرةَ عددِهم ، ويعلمُ أنَّ المعركةَ غيرُ متكافئـةٍ بين الطرفينِ ، خاصّةً وأنَّ أساورةَ الفرسِ مـاهرونَ جـدّاً في رمـيِ النبــالِ ، فـرأى أن يُجنِّـبَ قومَـه هـذا الخطـرَ ، وأنْ يُعِدَّ خطّةً حربيةً لقتالٍ سريعٍ وخاطفٍ ، فأمرَ قومَـه أنْ يقوموا بهجومٍ سـريـعٍ ليختلطوا مـع جنـودِ الفرسِ ،

فلا يستطيعُ أساورتُهم استخدامَ النُّشـابِ خوفاً مـن أنْ يُصيبوا جنودَهم ، فوجدوا أنفسَهم مضطريـنَ إلى إلقـاء أقواسِـهم ونبـالِهم واستعمالِ السيوفِ والرمـاحِ الـتي لا يستطيعون بهـا مواجهــةَ العـربِ المتمرِّسـينَ بفـنِّ استخدامِها وقدرتِهم عى التفوُّقِ بها على أعدائِهم مهما يكـنْ بأسُـهم قويـاً وجمعُهـم كثـيراً ، وهـذا مـا حـدثَ فعلاً ..

ومن نتائجِ المعركة : أنَّ العـربَ حطَّمـوا أُسـطورةَ الفُـرْسِ ، وأبطلـوا مقولـةَ : (إنَّ للفـرسِ جيشـاً قويـاً لا يُقهَرُ) ، وأنّهـم قـادرونَ علـى ردِّ العـدوان وسـحقِهِ وردعِهِ والانتصارِ عليه ، والمحافظـةِ علـى كرامتِهـم الـتي استهترَ بها الفرسُ ولم يُبـالوا بهـا ، واعتبروهـا معدومـةً حينَ رأَوا تفرُّقَ القبائلِ العربيةِ وتناحرَها .

وبالـجملـةِ فـقـد كانتْ نتيجـةُ الـمعركةِ مشرِّفةً ،

ومفخرةً للعربِ عبرَ التاريخِ الطويلِ ، لقد كـانَ العـربُ أنفسُهم يحسبونَ لهذه المعركةِ حسابَها ، ويُدرِكونَ أنهـا غيرُ متكافئةٍ ، حتى لقدْ قال بعضُهم : هلَكَتْ عِجْـلٌ .. ولكنَّ عجلاً ومَنْ معها من القبائلِ العربيةِ ظلّتْ صامدةً تتحدَّى الموتَ والأهوالَ ، ولبثتْ شامخةً تُدافعُ عن أمنِها ووجودِها، ومحافظةً على كرامتِها وشخصيَّتِها وهُويَّتِهـا، وراحتْ تستهينُ بكسرى وجبروتِهِ وأساورتِهِ ...

وهذا الشـاعرُ العربـيُّ الأعشـى ميمـونُ بـنُ قيـسٍ يسخرُ من كسرى ويقول :

مَنْ مُبلِغٌ كسرى إذا ما جاءه   عنـي مآلكَ مـخـمسـاتٍ شُـرَّدا
آليتُ لا نُعطيـهِ مـن أبنـائنـا   رُهْناً فيفسدَهم كَمَنْ قد أفسدا[1]

---

(1) آليتُ : أقسمتُ . والرُّهْنُ : الرهائن الـتي طلبهـا كسرى ضمـنَ شروطهِ المتقدّمة .

فاقعدْ عليك التاجُ معتصباً به   لا تطلبنَّ سوامَنا فتُعبَّدا[1]
فلعمْرُ جدِّك لو رأيتَ مقامَنا   لرأيتَ منّا منظراً ومؤيَّدا
في عارضٍ من وائلٍ إنْ تلقَهُ   يومَ الهياجِ يكنْ مسيرُك أنكدا[2]
وترى الجيادَ الُجرْدَ حولَ بيوتِنا   موقوفةً وترى الوشيجَ مسنَّدا[3]

---

[1] السوم : الذّل والاستعباد .

[2] العارض : هو في الحقيقة السحاب ، قال تعالى : ﴿ **فلمّا رأوهُ عارضاً مستقبلَ أوديتِهم قالوا هذا عارضٌ ممطِرُنا** ﴾ ، فالضميرُ في قوله تعالى : ﴿ **رأوه** ﴾ يعودُ على السحاب .

وهنا يشبّهُ الشاعرُ جيشَ البكريين بالسحابِ المتراكم ، والهياج : المعركة ، يريد : إنْ تلقَ هذا الجيشَ يومَ المعركةِ يكنْ خروجُك إلى لقائهِ شؤماً ونكالاً ، لأنه سوفَ يلقّنكَ درساً لنْ تنساه .

[3] الوشيج : الرماح ، يريد أنها مسندةٌ استعداداً للمعركة .

ما قيلَ من الشعرِ في يوم ذي قار

انتهتِ المعركةُ الحاسمةُ بنصر عربيّ حاسمٍ ، ووجدَ الشعراءُ في هذه المناسبةِ مـادةً خصبـةً ، وميدانـاً فسيحاً للتعبيرِ عمَّا يجيشُ في خواطرِهم ، وإظهارِ ما في نفوسِهم من فرحةٍ غامرةٍ وسعادةٍ كاملةٍ .

فـأخذوا يصوغـونَ الشـعرَ ، ويصِفُـونَ النصـرَ ، ويتغنَّونَ بالمآثرِ والبطولاتِ ، فأتَوا بكلِّ رائـعٍ وبديـعٍ .. وفي ذلك يقول الأعشى ميمونُ بنُ قيسٍ مفتخراً :

وجندُ كسرى غداةَ الحِنْوِ صبَّحَهم ... منا غطـاريفُ ترجـو الموتَ وانصرفوا[1]

لقوا ململمةً شـهبـاءَ يقدمُهـا ... للموتِ لا عاجزٌ فيها ولا خَرِفُ[2]

---

[1] الغطاريفُ : جمع غطريف ، وهو السيد ، وقيل : الفتى الجميل .

[2] ململمة : هي الكتيبةُ المجتمعة . والخَرِف : الرجلُ الذي فسدَ عقلُه من الكِبَر .

فَرْعٌ نَمَتْهُ فروعٌ غيرُ ناقصةٍ موفَّقٌ حازمٌ في أمره أنفُ[1]
فيها فوارسُ محمودٌ لقاؤُهُمُ مثلُ الأسنَّةِ لا مِيلٌ ولا كُشُفُ[2]
بيضُ الوجوهِ غداةَ الروعِ تحسبُهم جُنَّانَ عينٍ عليها البيضُ والزَّغَفُ[3]
لَمّا رأونا كشفنا عن جماجِمِنا ليعلموا أنّنا بكرٌ فينصرفوا
قالوا البقيةَ والهنديُّ يحصِدُهم ولا بقيةَ إلاّ السيفُ فانكشفوا[4]
لو أنَّ كلَّ معدٍ كانَ شاركَنا في يوم ذي قار ما أخطاهمُ الشرفُ
لَمّا أتونا كأنَّ الليلَ يقدمُهم مطبقُ الأرضِ تغشاها بهم سُدَفُ
بطارقٌ وبنو مُلْكٍ مَرَازِبةٌ من الأعاجمِ في آذانِها النُّطَفُ[5]
من كلِّ مرجانةٍ في البحرِ أحرزَها تيارها ووقاها طينَها الصّدَفُ
وظعنُنا خلفَنا تجري مدامعُها أكبادُها وجلاً مما ترى تجِفُ[6]

---

[1] أنف : الجمل الذلول الذي يأنف من الزجر .

[2] الكشُف : جمع أكشف ، وهو الذي لا ترسَ معه .

[3] جنّان : جمع جانّ من الجنّ . والزَّغَف : الدروع .

[4] البقيّة : أي أبقوا علينا ولا تستأصلونا .

[5] النطفُ : الأقراط .

[6] تجفُ : تضطربُ .

كأنّــمـا الآلُ في حـافـاتِ جمعِهـمُ والبيضُ برقٌ بدا في عـارضٍ يكِفُ

يحسرْنَ عن أوجـهٍ قد عاينتْ عِبراً ولاحـهـا عَـبرةٌ ألوانُهـا كِسَفُ[1]

ما في الخدودِ صدورٌ عن وجوهِهِمُ ولا عنِ الطعنِ في اللبات منحـرَفُ

لمّا أمالوا إلى النُّشّـابِ أيديَهم مِلْنـا ببيضٍ فظلّ الـهـامُ يُقتَطَـفُ

وخيلُ بكرٍ فمـا تنفكُّ تطحنُـهـم حتى تولّوا وكـادَ الـيـومُ ينتصـفُ

وقال يمدحُ بني شيبانَ :

فِدًى لبني ذهلِ بنِ شيبانَ ناقتي وراكبُـهـا يومَ اللقاء وقَـلَّـتِ

كفَوْا إذ أتى الهامرزُ تخفقُ فوقَه كظلِّ العُقابِ إذ هَوَتْ فتدلَّتِ[2]

أذاقوهمُ كأساً من الموتِ مُـرَّةً وقد بَذَّخَـتْ فرسانُهم وأذلَّتِ[3]

فصبَّحَهم بالـحِنْوِ حِنوِ قُراقـرٍ مقدمـةُ الـهـامرزِ حتى تولَّتِ[4]

---

(1) الكِسَفُ : القطع ، يريد أنَّ ألوانَها مختلفة .

(2) وفي رواية : تخنف ، بدل تخفق ، والخنف : الميل .

(3) بذّخت : تطاولتْ وتكبَّرتْ ، وبَـذخَ البعيرُ : اشتدَّ هديره فلـم يكنْ فوقه شيءٌ .

(4) ورويَ هذا البيتُ في لسان العرب :

وهم ضربوا بالحنو حنو قُراقرٍ وذي قارِها منها الجنود فقلّتِ

على كلِّ محبوكِ السَّراةِ كأنه عقابٌ سرتْ من مرقبٍ إذ تدلَّتِ[1]
فجاءتْ على الهامرزِ وسطَ بيوتِهم شآبيبُ موتٍ أسبلتْ فاستهلَّتِ
تناهتْ بنو الأحزابِ إذ صبرَتْ لهم فوارسُ من شيبانَ غلبٌ فولَّتِ

وقال العديلُ بنُ الفرجِ العِجْلي :

ما أوقدَ الناسُ من نارٍ لمكرُمةٍ إلاّ اصطلينا وكنّا مُوقدي النارِ
وما يعدُّونَ من يومٍ سمعتُ به للناسِ أفضلَ من يومٍ بذي قارِ
جئنا بأسلابِهم والخيلُ عابسةٌ لَمّا استلبْنا لكسرى كلَّ إسوارِ[2]

وقال أبو كلبةَ التميميّ :

لولا فوارسُ لا مِيلٌ ولا عُزُلٌ من اللهازمِ ما قظتُم بذي قارِ[3]

---

[1] وفي رواية : مجبول ، بدل محبوك .. والله تعالى أعلم .

[2] الإسوار : قائدُ الجيش عند الفرسِ ، وقيلَ : هو الرامي الماهر للسهام ، والجمع أساورة وأساور .

[3] الأميل : الذي لا سيفَ له ، أو لا رمحَ معه ، أو ليس معه ترس ، وقيل : هو الجبَان ، أو الذي لا يثبتُ على ظهر الخيل ، والجمع مِيلٌ .

والعُزُل : الذي ليس معه سلاح .

واللهازم : هم بنو تميم . وقظتُم : يقال : قاظَ الرجل : مات .

إنَّ الفوارسَ من عِجْلٍ هـمُ أنفوا   من أنْ يُخلُّوا لكسرى عرصةَ الدارِ[1]
لاقَوا فوارسَ من عجلٍ لشكتِها   ليسوا إذا قُلِّصَتْ حربٌ بأغمارِ[2]
همُ الذين أتَوْهم عن شمائلِهم   كما تلبَّسَ وُرَّادٌ بصُدَّارِ

وقال لقيطُ الإيادي يمدحُ بني شيبانَ لِمَا أبلَوه في يومِ ذي قارٍ :

قوموا قياماً على أمشاطِ أرجلِكم   ثم افزعوا قد ينالُ الأمنَ مَنْ فزعا
وقلّدوا أمرَكم لله درُّكُمُ   رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مضطلعا
لا مُترفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعدَه   ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشعا
ما زالَ يحلبُ هذا الدهرُ أشطرَه   يكونُ متّبِعاً طوراً ومتَّبَعا[3]

---

[1] عرصةُ الدار : القطعة من الأرضِ ليس فيها بناء ، والجمعُ عِراص وعَرَصات .
[2] الشكة : السلاح . وأغمار : جمع غمر ، وهو رجلٌ ليس له تجربةٌ بحرب .
[3] أشطر الدهر : أخباره وضروبُه .

حتى استمرَّ على شزرٍ مريرته مستحكمَ الرأيِ لا قحماً ولا ضرعا[1]

وقيل غير ذلـك كثـيرٌ مـن الشـعرِ الـذي تغنّـى بـه الشعراءُ ، وافتخروا بذلك اليومِ العظيمِ الـذي يعـدُّ بحـق مفخرةً للعرب إلى يوم القيامةِ .[2]

---

(1) القحمُ : الكبيرُ من الإبل .

(2) تاريخ الطبري ، الكامل في التاريخ ، تاريخ ابن خلـدون ، مـروج الذهب ، العـالم الإسـلامي ، أيـام العـرب في الجاهليـة ، تـاريخ أبـي الفداء ، تفسير القرطبي ، لسان العرب ، المصباح المنير ، معركـة ذي قار ، بردة المديح للبوصيري .

خاتمة

في أثرِ الإسلام في يوم ذي قار

أشرقتِ الشمسُ على بطحـاء ذي قـارٍ ومـا يحيطُ بها من سهولٍ وجبالٍ ، وألقَتْ علـى الأرضِ رداءً نقيّـاً من نورِها المتوهِّجِ الذي همَدَ له كلُّ شـيءٍ ، وهـدأتِ الأصـواتُ ، وسـكنتْ صلصلـةُ السـيوفِ ، واختفـتْ قعقعةُ الرماحِ ، وخفَـتَ صهيـلُ الخيـولِ ، وخيَّـمَ علـى المكان صمتٌ مطبقٌ فيه هيبةٌ وجلالٌ ..

لقـدِ انتهـتِ معركـةُ ذي قـار وخلَّفـتْ وراءَهـا للعربِ أفراحاً عامـرةً ، وللغزاةِ المعتدين أحزانـاً عميقةً ، وآلاماً مُمِضَّةً .

ما هي إلاّ سـاعاتٌ قليلـةٌ مـن نهـارٍ حتـى انتهـتِ الـمعركـةُ التـي استمرَّ الاستعدادُ لـهـا من الفريقين أياماً

وأياماً .. أياماً مـن الجِـدِّ والعمـل والتخطيـطِ والـترتيب انتهتْ خلالَ ساعاتٍ قليـةٍ وقبـلَ أن ينتصـفَ النهـارُ ، كما قال أعشى بكرٍ مفتخراً :

وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تطحنُهم حتى تولّوا وكادَ اليومُ ينتصفُ

وكأنَّ اللهَ عـزّ وجـلَّ أطلـعَ نبيَّـه محمـداً ﷺ علـى وقـائعِ المعركـةِ ، وأعلَمَـه بنتائجهـا ، وكـان ذلـك سنة ٦١٢ للميلاد ، وبعد بعثـةِ النبيِّ ﷺ بثلاثِ سنين ، وكانتِ الدعوةُ الإسلاميةُ سِرِّيةً لم تُجاوزْ أطـرافَ مكـةَ المكرمة ، إذ لم يكنِ النبيُّ ﷺ قد أُمِرَ أن يجهرَ بدعوتهِ .

وبينما هو جالسٌ ذاتَ يومٍ مـع أصحابـهِ ، إذ رنـا بصرُه إلى الأُفق ، وأخذَ يُصغي باهتمامِ مَنْ يتلقّى همساً وسرّاً ، ثم نظرَ في وجوهِ أصحابهِ ، وقال لهـم : « هـذا أوّلُ يومٍ انتصفَ فيه العربُ من العجمِ، وبي نُصِروا » .

إنَّ أحدَنـا حينَ يقرأُ قولَ النبيِّ محمدٍ ﷺ : « وبي

نُصروا » أو يسمعهُ يُتلى أمامَه يأخذُه العجَب ، وترتسمُ على وجههِ علامات الاستفهامِ، ويدعوه الفُضولُ وحبُّ الاستطلاعِ أن يتساءلَ : كيف نُصِرَ العربُ بالنبيِّ ﷺ وهمُ الذين لم يرَوه ، ولم يجتمعوا به ، ولم يعلموا شيئاً عن دعوتهِ ولم تبلُغْهم أصلاً ؟!

إنَّ هذه العبارةَ لم تأتِ من فراغٍ ، ولم يتلفَّظْ بها النبيُّ ﷺ عبثاً، ولم تَجْرِ على لسانهِ عفوَ الخاطرِ، بل إنَّ لها سبباً، وإنَّ لها مناسبةً، وإلاّ لم يقلْها ولم يتلفَّظْ بها .

إذ يمكنُ أن يقالَ : بأنَّ دعوةَ الإسلامِ انتقلتْ من مكةَ عن طريقِ بعضِ التجارِ أو المارِّينَ بمكةَ إلى العراقِ وبلادِ فارسَ فسمعَ بها أهلُ تلكَ البلاد دونَ أن يُحيطوا بتفاصيلِها ، وحين وقعتْ معركةُ ذي قار، ورأى العربُ البكريون جحافلَ الفرسِ تتدفَّقُ إلى ذي قارٍ لتستأصلَهم

وتقضيَ عليهم ، أخذوا يتشاورونَ لوضعِ شعارٍ يرفعونهُ أثناءَ القتالِ على عادةِ العربِ أيامئذٍ .

لقد قرأتُ منذُ أعوامٍ طويلةٍ مقالاً نشرتْه مجلّةُ العربي ، يدورُ حولَ موضوعِ معركةِ ذي قار ، تحدَّث الكاتبُ عن تفاصيلِ المعركة وقال بما معناه:

لقد اتفقَ البكريونَ أن يكونَ شعارُهم أثناءَ القتال: (وامحمداه .. وامحمداه) حينَ اقترحَ بعضُهم ذلك وقال: يا قومُ ، لقد سمعنا بأنه ظهرَ بمكةَ رجلٌ مباركٌ يدعو إلى عبادةِ اللهِ وتوحيده ، وإلى مكارمِ الأخلاق ، ومحاسنِ الأعمال ، وإنَّ اسمَه محمد بنُ عبد الله .

وقال آخرُ : لقد سمعنا أنه يقول : إنّه رسولُ الله، فما يمنعُنا أن نستنصرَ به ؟

فاتفقَ القومُ على أنْ يستنصروا به، وأنْ يجعلوا اسمَه شعاراً لهم ، ففعلوا ، فنصرَهمُ الله تعالى .

لقد فعلوا ذلك بدافعِ العاطفـةِ العربيـةِ ، ووشيجةِ القربى التي تربطُ بين جميعِ العرب .

لقد استنصروا بمحمدٍ ﷺ دونَ أن يَرَوه أو يعلمـوا عنه شيئاً ، فكيفَ بهم لو اسـتنصروا بـه وهـم مؤمنـونَ بدعوتهِ ورسالتهِ ؟!

لقد استنصروا بمحمدٍ ﷺ لأنه عربيٌّ مثلُهـم ، ولم يعلموا عنه سوى اسمِهِ ..

ولعـلَّ هـذا تفسـيرُ قولِـهِ ﷺ : « وبـي نُصِـروا ».

وصدقَ رسولُ الله ﷺ وهو الصادقُ المصدوق .

تمت الرسالة

والحمد لله أولاً وآخراً وبَدءاً وختاماً

وإلى لقاءٍ مع رسالةٍ أخرى

الفهرس

معارك عربية خالدة

٢



اعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

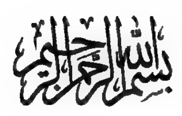
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

عنوان الدار

سورية – حلب – خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص. ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣



الحمدُ للهِ واهبِ النّعم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لــــم يعلم. اللهم لك الحمدُ على مايسّرت وأعنت، ولك الشكر على مــا وفّقت وهديتَ، ولك الفضل على ما تكرّمت وأعطيت.

اللهم أحينا مسلمين، وتوفّنا مسلمين، وألحقْنا بالصــــالحين، غيرَ خزايا ولا نادمين.

اللهم صلِّ على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابــــه الذيــن شادوا الدّينَ وضحّوْا بأموالهم و أنفسهم في سبيل رفع لوائه عالياً خفاقاً، فكانوا دعاةَ حقّ، وهداةَ خيرٍ، وأئمّةَ عدلٍ، أوصلوا تعــاليمَ الإسلامِ إلى كلّ بقاع الأرضِ، ونشـــروا فيـــها الأمـــنَ والخـــير والسلامَ ففُتِحتْ لهم قلوبُ العبادِ قبل أن تُفتح لهم البلادُ بالتزامــهم آداب الإسلام، وتخلّقهم بأخلاقهِ، وعملهم بشرعه. فكـــانوا كمـــا حدّث عنهم القرآنُ الكريم : خيرَ أمّة أُخرجت للناس.

أولئك كتَب في قلوبهم الإيمانَ وأيّدهم بروح منه ويدخلُـــهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رضــــي اللهُ عنـــهم ورضُوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزبَ الله هم المفلحون .

أمّا بعدُ:

فإن غزواتِ الرسول ﷺ وما فيها من عــــبر وعظــاتٍ، وحكم ومعجزات، وما تشتملُ عليه من دروسٍ وآيــاتٍ جعلتنــي أقوم بكتابتِها، وبيان تفاصيلها، وشرح مقاصدِها لأقدّمــها هديــةً لكل مؤمنٍ بالله، مُحِبّ لرسول الله ﷺ، متعطّش لمعرفة ســيرتِه العطرةِ، وغزواتِه الشُجاعةِ، ومواقفِه الجريئة، وجهادِه الدائمِ فهو القدوةُ الصالحة، والأسوةُ الحسنةُ لمن كــان يرجــو اللهَ واليــومَ الآخر وذكرَ اللهَ كثيراً.

هذا. وقد راعيتُ التسلسل الزمنيَّ للغزوات وجعلتُها مرتّبةً بحيث تكونُ كل غزوة في رسالة مستقلة. وقد دعمت كلَّ حادثــةٍ وموقفٍ بما يناسبُ من الآيات القُرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ معتمــداً على أهم المراجع وأشــهرِها فــي الســيرة النبويــة والتــاريخ الإسلامي وهي:

١ــ القرآن الكريم.

٢ــ صحيح البخاري.

٣ــ صحيح مسلم.

٤ــ تفسير القرطبي.

٥ــ تفسير ابن كثير.

٦ــ البداية والنهاية لابن كثير.

٧ــ سيرة ابن هشام.

٨ ــ الإصابة في تمييز الصحابة.

٩ــ الاستيعاب في أسماء الأصحاب.

١٠ــ صفة الصفوة.

فجاءت بعون الله تعالى واضحةً سهلةً مهذّبة بعيــدة عــن التعقيد والتطويل والحمد الله رب العالمين.

ولا أربَ لي إلا ابتغاءُ وجهه الكريم، وخدمةُ سيرة ســـيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ.

رب اشْرح لي صدري. ويسّر لي أمري، واحلُلْ عقدة مــن لساني يفقهوا قولي.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

معنى الجهاد
حُكمُه. فضلُه. الحثُّ عليه

١ـ معناه

(الجهادُ) أصلهُ لغةً مأخوذٌ من الجهد، وهو المشقة والطاقة.

وشرعاً : بذل الجهد في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله. قال الله تعالى[1] ﴿ وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلُّهُ للهِ ﴾. صدق الله العظيم

ويُطْلَق أيضاً في الشرع على مجاهدةِ النّفس والشيطان والفُسّاق.

فأمّا مجاهدةُ النفسِ: فعلى تعلّمِ أمورِ الدّين العملِ بها وتعليمِها، و حبسِها عن المعاصي، ومنعِها من الاسترسال في الهوى والشهوة. وأمّا مجاهدةُ الشيطانِ : فعلى دفعِ ما يأتي به من الشُّبهات وما يزيّنهُ من الشهوات.

وأمّا مجاهدةُ الفسّاق : فعلى ما يثيرونه من دعاياتٍ مُضلّلةٍ وأقاويلَ كاذبةٍ تضرُّ بالمسلمين، وتعكّر صفوَهم، وتضعِفُ بنيانَهم، وتثبّطُ هِممَهم.

---

(١) الأنفال : ٣٩

والذي يعنينا من التعريفِ ـ الأولُ وهو (بذلُ الجهد في قتال الكفّارِ لإعلاءِ كلمةِ الله) لأن مُعظمَ محورِ الحديث سيدور حولَ هذا المعنى.

٢ـ حكمه

جاءتْ آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ تتعلّق بحُكم الجهاد وتأمر المسلمين بتطبيقهِ، وتحذّرهم من تركه والتخلف عنه.

١ـ منها قولُه تعالى:[١] ﴿ كُتبَ عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم ﴾.

وقولُه تعالى: [٢] ﴿ انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالِكم وأنفِسكم في سبيلِ الله ﴾.

وقولُه تعالى: [٣] ﴿ ماكان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حولَهم من الأعرابِ أن يتخلّفوا عن رسولِ الله ﴾.

وقولُه تعالى: [٤] ﴿ ياأيُّها النبيُّ جاهدِ الكفارَ والمنافقينَ واغلُظْ عليهم ﴾.

وقولُه تعالى: [٥] ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كلُّه لله ﴾.

وقولُه تعالى: [٦] ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتِلونكم ولا تعتدوا ﴾.

---

(١) البقرة: ٢١٦ (٢) التوبة:٤١ (٣) التوبة:١٢٠
(٤) التوبة:٧٣ (٥) الأنفال:٣٩ (٦) البقرة:١٩٠

وقولُه تعالى:[1] ﴿ **واقتلوهم حيثُ ثقِفتموهم وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم** ﴾.

وقولُه تعالى:[2] ﴿ **فقاتلْ في سبيل الله لاتُكلَّفُ إلا نفسَك وحرّضِ المؤمنين** ﴾.

وقولُه تعالى:[3] ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾. وآياتٌ كثيرة غيرها مفرقة في ثنايا صفحات القرآن الكريم.

٢ــ وأمّا الأحاديثُ النبوية فقولُه ﷺ: ﴿ من مات ولم يغزُ ولم يحدّثْ نفسَه بالغزو مات ميتَةً جاهليةً ﴾.

وقولُه ﷺ يومَ الفتح: ﴿ لا هجرةَ بعد الفتحِ ولكنْ جِهادٌ ونيةٌ. وإذا استُنفِرتم فانفِروا ﴾.

ومنها بيعتُه ﷺ الأنصارَ ليلةَ العقبة على الإيواءِ والنُصرة.

وبالتأمّل في هذه النصوص يتبيّن لنا وجوبُ الجهاد. فقوله تعالى ﴿ **كُتب عليكم القتال** ﴾ بمعنى فُرض، لكنه يكونُ فرضَ عينٍ، ويكون فرض كفايةٍ.

١ــ يكون فرضَ كفايةٍ: إذا لم يتهدّدْ بلادَ المسلمين خطرٌ داهمٌ. فإذا قام به عددٌ من المسلمين سقط الإثمُ عن الباقين.

---

(١) التوبة: ١٩١ (٢) النساء: ٨٤

(٣) محمد: ٤

٢ـ ويكون فرضَ عينٍ: إذا تعرّضتْ بلادُ المسلمين لأيِّ اعتداءٍ فيكون حينئذ كلٌّ مسلم مطالباً بالجهاد كلٌّ قدرَ طاقتِه واستعداده.

ومن رحمةَ الله تعالى بعباده أن رخّص لبعضهم بترك الجهاد وأعفاهم من فريضته لأن فيهم الصغير والمعذور ومن لاقدرةَ له على القتال. فقد رد رسول الله ﷺ عدداً من الصحابة ومنعهم من الجهاد لصغرهم وكونِهم دون خمسَ عشرةَ سنةً.

وأُعفي أصحابُ الأعذارِ في قولُه تعالى:[١] ﴿ ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرجِ حرجٌ ولا على المريضِ حرجٌ ﴾.

كذلك أعفيَ من منعه أحدُ أبويه. فقد رُوي أن رجلاً هاجر إلى النبيّ ﷺ من اليمن، فقال له النبي ﷺ: هل لك أحدٌ باليمنِ؟ فقال: أبواي. فقال: أذنا لك؟ فقال: لا. قال: ارجعْ إليهما فاستأذنْها فإن أذنا لك فجاهدْ وإلا فبرّهما.

كذلك أُعفي من عليه دَيْنٌ ومنعه غريمُه من الجهاد لقول رسول الله ﷺ: ﴿ يغفَرُ للشهيدِ كلُ ذنبٍ إلا الدّيْنَ فإن جبريلَ عليه السلامُ قال لي ذلك ﴾.

٣ـ فضله:

إذا أردْنا أن نلقيَ نظرةً فاحصةً في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ لنضعَ أيديَنا على الآيات الكريمةَ التي تبيّن فضل

---

(١) النور: ٦١

الجهاد وما جعل اللهُ للمجاهدين في سبيلهِ من أجرٍ عظيمٍ، وثوابٍ كبير، ومغفرة الذنب، ودخولِ الجنة، والنّجاةِ من النـــار رأيناهــا مليئةً بالدعوة الحارّةِ إلى الجهاد كيف وقد وعَدَ بذلك أوفى واعـدٍ وأكرمُ قائلٍ على لسان أصدق رسولٍ وخير نبيّ محمدٍ ﷺ، يقول تعالى في سورة بـــراءة:(١) ﴿إن اللهَ اشــترى مــن المؤمنيــن أنفسَهم وأموالَهُم بأنّ لهم الجنةَ يقاتِلون في سبيل اللهِ فَيقتلــون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيلِ والقـــرآنِ ومَــنْ أوفَى بعهدهِ من اللهِ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هــو الفوزُ العظيم ﴾.

ويقول تعالى في سورة الصَفّ :(٢) ﴿ يأيُّها الذين آمنــوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليــمٍ. تؤمنـــون بـــاللهِ ورسولهِ وتجاهدون في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسِكم ذلكم خـــيرٌ لكم إن كنتم تعلمونَ. يغفرْ لكم ذنوبكم ويدْخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جنات عدنٍ ذلك الفوزُ العظيــمُ. وأخرى تحبونها نصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريبٌ وبشّرِ المؤمنين ﴾.

ويقول تعالى في سورة النســـاء:(٣) ﴿ فضّــل اللهُ المجــاهدين بأموالِهم وأنفسهم على القـــاعدين درجــةً و كُـــلاً وعــد اللهُ الحسنَى وفضّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾.

---

(١) التوبة:١١١ (٢) الآيات:١٠-١٣

(٣) الآية:٩٥

ويقول تعالى في سورة النساء أيضاً: (١) ﴿ **فليقاتلْ في سبيلِ الله الذين يشْرون الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ومَنْ يقاتِلْ في سبيلِ الله فيُقتَلْ أو يغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾.

والآياتُ في هذا الموضوع كثيرةٌ.

كما جاءت السنّةُ النبويّةُ المطهّرة لتنقل البشارةَ ذاتَها للمجاهدين في سبيل الله. يقول رسولُ الله ﷺ: ﴿ تضمن اللهُ لمن خرج في سبيله لايخرجُه إلا جهاد في سبيلي. وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي. فهو على ضامنٌ أن أُدخلَه الجنةَ أو أرجعه إلى مسكنِه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ. والذي نفسُ محمدٍ بيدِه ما كلْمٌ يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئتِه حين كُلِمُ لونهُ لونُ دم. وريُحُهُ ريحُ مسكٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لولا أن أشقَ على المسلمين ما قعدت خلافَ سريةٍ تغزو في سبيل الله أبداً. ولكن لا أجدُ سعةً فاحملَهم. ولايجدون سعةً ويشقُ عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفسُ محمد بيده لودِدْتُ أن أغزو في سبيل الله فأقتل. ثم أغزو فأقتل ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ لروحةٌ في سبيل الله أو غدوةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ﴾ . ويقول أيضاً: ﴿ مَن اغبرّتْ قدماه في سبيل الله حرّمه اللهُ على النار ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ اعلموا أنّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوف ﴾.

---

(١) الآية: ٧٤

هذا قليلٌ من كثير، وغَيْضٌ من فيض مما تعرّض له القرآنُ الكريم، والسنّةُ النبوية المطهرة لبيان فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله وهو كافٍ في دفع الإنسان إلى بذل النفْسِ والنّفيس، والغالي والرخيصِ، طَيّبةً به نفسُه، مرتاحاً له يقينُهُ. فما أعظمَ هذا التبايعَ، وما أجلَّ خطرَه! فإن الله عزّ وجلَّ هو المشتري والثمن جناتُ النعيم، والفوز بالرضوان العميم، والتمتّع برؤية الله الكريم وذلك هو الفوز العظيم.

٤ـ الحث عليه:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالجهاد، وجاءت آيات كثيرة تحثّ عليه وتُلهبُ المشاعرَ، وتثير الحماس، وتحرّكُ الوجدانَ، وتجعل القلوبَ تفيض بالحركة والحيويةِ والنّشاط.فما كان من المسلمين إلا أن استجابوا لهذا الأمرِ، وتفاعلوا معه وضحَّوْا بكل غالٍ ونفيس، واستهانوا بكلِّ ما يملكون لإعلاءِ كلمةِ الله ونشرِ دينهِ ولو كرِه الكافرون. فكلُّ شيءٍ يهونُ ما دام في سبيل الله وابتغاءَ وجهِه ونيلِ مرضاتِه.

يقول تعالى: ﴿ **فلْيقاتل في سبيل الذين يشرون الحياةَ الدنيا بالآخرة ومنْ يقاتلْ في سبيل الله فيقتلْ أو يغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ **فقاتلْ في سبيل الله لا تُكَلَفُ إلا نفسَك وحرّضِ المؤمنين** ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ فـإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ﴾.

ويقول أيضاً: [١] ﴿ إذ يوحي ربُك إلى الملائكةِ أنّي معكم فثبّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ فاضرْبوا فوق الأعناقِ واضربوا منهم كلَّ بنانٍ ﴾.

ويقولُ أيضاً: ﴿ ياأيها النبيُّ جاهدِ الكفارَ والمنافقين واغْلُظْ عليهم ومأواهم جهنمُ وبئسَ المصير ﴾.

ويقول أيضاً: [٢] ﴿ يا أيها النبيُّ حرّضِ المؤمنين على القتال ﴾.

ويقول أيضاً: [٣] ﴿ فإذا انسلخ الأشهرُ الحرمُ فاقتلُوا المشركين حيثُ وجدتموهم وخذوهم و احصُروهم واقعدُوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ ﴾. وآياتٌ أخرى كثيرةٌ تحثُّ المسلمين على القتال.

وقد سُئل رسولُ الله ﷺ. أيُ العملِ أفضلُ؟

قال: إيمانٌ بالله ورسولهِ. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهادُ في سبيل الله.قيل: ثم ماذا؟ قال: حجٌ مبرور.

وعن جابر قال: قال رجل للنبي ﷺ يومَ أُحُد: أرأيتَ إن قُتِلتُ فأين أنا؟ قال: في الجنةِ. فألقى تمراتٍ في يدهِ. ثم قاتل حتّى قُتل.

---

(١) الأنفال:١٢ (٢) الأنفال:٦٥

(٣)التوبة:٥

وعن أنس. أن عُمر بنَ الحُمام أخرج تمرات فجعل يأكلُ منهن ثم قال: لئن أنا حَييتُ حتى آكل تمراتي إنها لحياةٌ طويلةٌ ثم قاتل حتى قُتل.

والواقعتان مختلفتان حيث جاء في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدرٍ. وفي حديث جابر أن الآخرَ كان يومَ أُحُد.

وماهذه البطولاتُ وغيرُها عبر التاريخ الإسلامي إلاّ من ثمراتِ الإيمانِ الراسخِ واليقينِ الكاملِ بالله واليومِ الآخِرِ. لذلك لم يأمُرِ الإسلامُ بالجهاد إلا بعد أن رسَخ عقيدةَ الإيمانِ في قلوب رجالٍ عقيدتُهم بالله واليوم الآخر قويّةٌ صلبةٌ لا تتزلزل، من أجل ذلك لم يكادوا يسمعون داعيَ الجهاد حتى أقدموا عليه وقد هانت عليهم نفوسُهم فباعوها رخيصةً في سبيل الله مُؤثِرين النعيمَ الدائمَ على النعيم الزائلِ. فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرةِ إلاّ قليلٌ.

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنةَ يقاتِلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومن أوفى بعهدهِ من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾.

مراحل تشريع الجهاد

بدأ رسولُ الله ﷺ دعوتَه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة امتثالاً لأمر ربِّه عز وجل:[1] ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي أحسنْ ﴾ فقابله المشركون بالتكذيب والتعذيب والأذى، وذاق هو وأصحابُه العذابَ ألواناً في سبيل الله فصبروا واحتسبُوا واثقين بأن اللهَ عزّ وجلّ سوف يجعلُ لهم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وبعد الأذى أمناً وسلاماً، ولما اشتدَّ تعنُّت المشركين وبالغوا بإيذائهم والتضييقِ عليهم جاءوا رسولَ الله ﷺ يستأذنونه بالقتال، فقال لهم: اصبروا فإني لم أومرْ بقتال. ولم يقلْ ذلك عن ضعفٍ وهوانٍ، ولم يسكتْ أصحابُه عن جُبنٍ وخِذْلانٍ كيف وهم الذين قالوا له يوم العقبة: ﴿ والله الذي بعثك بالحقّ إن شئت لنميلنّ على أهل مِنى غداً بأسيافنا ﴾. فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ﴿ لم نؤمرْ بذلك ﴾ ذلك وأن الجهاد في ذلك الحين كان محرماً بنصّ قولهِ تعالى في سورة النساء[2]: **﴿ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فلما كُتبَ عليهم القتالُ إذا**

---

(١) النحل:١٢٥ (٢) الآية:٧٧

فريقٌ منهم يخشون الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشية ﴾.

فقد كان المسلمون في مكة قِلَّــةً لا يملكــون ســلاحاً، والمشركون كثرةً يشكِّلون ثقلاً وقوةً، أضف إلى ذلك أن المــالَ والسلاحَ والسلطةَ بأيديهم. لذلك حرّم اللهُ عليهم القتالَ رحمةً بــهم وشفقةً عليهم، فلمّا هاجروا إلى المدينة وترسّختْ عقيدةُ الإيمــان في قلوبهم، وكثُر عددُهم بحيث يســتطيعون مواجهــةَ جحــافلِ الشّرك وأعوانِ الشيطان وينتصرون عليهما كما انتصروا علــى أنفسهم بفضل هَدْيِ رسولِ الله ﷺ الذي استطاع أن يَصنَع منــهم الجماعةَ المؤمنة المنتصرةَ على الدنيــا وشــهواتِها، المســتهينةَ بزينتها وزخارفِها حينئذٍ جاء الإذنُ الإلهي بالقتــال لــردِّ الظلــم والعدوان وللدفاع عن النفس والدين، ثم تتابعت آيــاتُ القــرآن تحثُّ المسلمين على الجهاد لنشر الإسلام والعدل والسلام، وحتى لا يقفَ في طريق الدعوة عائقٌ، فكان أول آية نزلت بالإذن فــي القتال قوله تعالى في سورة الحج:(١) **﴿ أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن اللهَ على نصرهم لقديرٌ. الذين أُخرجوا من ديــارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُنا اللهُ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَــــهم ببعضٍ لهدّمتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اســمُ**

(١) الآيات:٣٩-٤١

اللهِ كثيراً ولينصُرَنَّ الله من ينصرُه إن اللهَ لقويٌّ عزيز. الذيـن إن مكنـاهم في الأرض أقامـوا الصـلاةَ وآتَـوا الزكـاةَ وأمـروا بالمعروفِ ونهَوا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور ﴾.

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره: (فلمّا بغى المشركون وأخرجـوا النبيَّ ﷺ من بين أظهُرِهم وهمُّوا بقتلِه، وشرّدوا أصحابَه شَـذَرَ مذَر فذهب طائفةٌ منهم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلمـا استقرّوا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقـاموا بنصرِه. وصارت لهم دارَ إسلام. ومعقلاً يلجؤون إليه. شرع اللهُ جهادَ الأعداء. فكانت هذه الآيةُ أولَ مانزل في ذلك).

وهذه هي المرحلةُ الثّانيةُ من مراحل تشريع الجهاد بعـد تحريمِه. حيث أذِن لهم بعد طول حظرٍ وقوةِ صـبر علـى أذى المشركين.

وفي المرحلة الثالثة أمر اللهُ بجـهادِ مـن اعتـدى مـن المشركين. دون مَنْ لم يصدُرْ منهم اعتـداءٌ رفقـاً بالمسـلمين، وتضييقاً لدائرةِ القتال.

وإلى ذلك يشير قولُه تعالى في سورة البقرة:[1] **﴿ وقـاتلوا في سـبيل الله الذيـن يقـاتلونكم ولا تعتـدوا إن اللهَ لايحـبُ**

---

(1) الآية: ١٩٠.

المعتدين ﴾.

ثم تأتي المرحلة الرابعة ليأمر اللهُ تعالى بقتالِ المشركين كافةً.

قال تعالى في سورة براءة:[1] **﴿ فإذا انسلخ الأشهرُ الحرمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصُروهم واقعدوا لهم كلَ مرصدٍ فإن تابوا وأقاموا الصّلاةَ وآتَوا الزكاةَ فخلُّوا سبيلَهم إن اللهَ غفورٌ رحيم ﴾**.

ثم تأتي المرحلة الخامسةُ والأخيرة ليكون فيها الأمرْ بقتالِ أهل الكتاب. قال تعالى في سورة براءة:[2] **﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليومِ الآخرِ ولا يُحرّمون ماحرم اللهُ ورسولُه ولا يَدينون دينَ الحقِ من الذين أُوتوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾**.

قال ابن كثير: (وهذه الآيةُ الكريمة أوّلُ الأمرِ بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهّدتْ أمورُ المشركين. ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً واستقامتْ جزيرةُ العرب. وكان ذلك سنةَ تسعٍ).

---

(١) الآية:٥ (٢) الآية:٢٩

أعمالُ النبيِّ ﷺ قبل غزوةِ بدر

بعد أن استقرّ المسلمون في المدينة المنورة بعد الهجرةِ وبنى رسولُ الله ﷺ مسجده فيها. وآخى بين المهاجرين والأنصارِ وعقد معاهدةً مع قبائلِ اليهودِ وترك لهم فيها مُطلقَ الحريةِ بإقامة الطقوسِ الدينيةِ والمعاملات الماليّةِ لكونهم مجاورين للمدينة. ولأنّهم لم يُظهروا في بادئ الأمر مقاومةً أو عداوة أو خصومة.

أخذ ﷺ يعقدُ الألويةَ، ويرسِل السرايا، ويشن الإغاراتِ حول المدينة، وعلى الطرق المؤدّية إليها من مكةَ وبالعكس ومن هذه الطرقِ إلى الشام لاستكشافها والتعرّف عليها لأنّها طُرقُ قوافلِ قريش لإشعار مشركي يثربَ ويهودها، وأعرابِ الباديةِ الضاربين حولها. وتجارِ مكة المارّين بها بأن المسلمين أصبحوا يُشكلّون قوةً لايُستهان بها. ودولةً يحسبُ حسابُها. الأمرُ الذي أغاظ قريشاً واستشاطَ غضبُ زعمائها وأثار حميّتهم. فأخذوا يستفزّون المسلمينِ، ويتحرّشون بهم، ويتهدّدونهم، ويؤلّبون عليهم. فارسلوا يتوعدونهم ويقولون لهم: لايغرّنكم أنكم أفلتمونا إلى يثربَ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عُقرِ داركِم.

ثم أرسلوا إلى عميلهم عبدِ الله بن أُبي بــن ســلول رأس المنافقين في يثرب يقولون له ولأصحابه: (إنكم آويتم صاحبنَــا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعِنا حتى نقتلَ مُقاتِلتَكم ونستبيحَ نساءكم) وفور وصول هذه الكتــاب قــام عدو الله عبدُ الله بنُ أُبيّ لتنفيذ أمرِ المشركين ولاسيّما أنه كــان يحقِدُ على النبي ﷺ لاعتقاده أنّه استلبَه ملكَه.

فقد كان ابنُ أُبيّ رئيسَ الأنصار قبل هجــرة المســلمين، وكانوا مجتمعين عليه، وكادوا يتوّجونه ملكاً عليهم. فلما هــاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة وآمن به الأنصــارُ وآووهُ ونصــروه واتّبعوا النورَ الذي أُنزل معه شعر عبدُ الله بنُ أبيّ بأن رســولَ الله ﷺ قد نافسه على الزّعامة والملك واستلبَها منه. مــن أجــل هذا حقَد عليه وأضمر له العداوةَ، وانتظــر اللحظــةَ المناســبةَ للانتقام منه. لذلك لم يكدْ يصلُ إليه كتابُ مشركي مكّة حتى قــام لتنفيذ ما أمر به.

وبلغ الخبرُ رسولَ الله ﷺ الذي اســتطاعَ بحكمتــه أن يطفئَ نار شرهم ويقنعَ أصحاب ابن أُبيّ بعدم الاستماعِ لداعـــي الشّر والفساد والعُدوانِ. وبذلك تكون خطةُ قريــش قــد بــاءتْ الفشل.

ثم إن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان في مكّة مُعتمراً.

وكان في الجاهلية صديقاً لأُميةَ بنِ خلف. فلقيهما أبو جهلٍ. فقال لأمية: يا أبا صفوان مَنْ هذا معك؟ فقال : سعدُ بنْ معاذ. فقال أبو جهلٍ لسعد: ألا أراك تطوفُ بمكّة آمناً وقد آويتُم الصبأةَ، وزعمتم أنكم تنصُرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنّك مع أبي صفوانَ ما رجعتَ إلى أهلك سالماً. فقال سعدٌ ورفع صوتَه عليه: أما والله لئن منعتَني هذا لأمنعنَّك ماهو أشدُ عليك منه، طريقَك على أهل المدينة. لذلك فقد كانت كلُّ هذه الأحداث تعملُ على إيقاظ المسلمين. وتدعوهم لأخذ الحَيْطَةِ والحذر، فكانوا لا يبيتون إلا بالسّلاحِ ولايُصبّحون إلا فيه.

رُوي أن سعدَ بنَ أبي وقاص وحذيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنهما سهرا يحرسان رسولَ الله ﷺ فسمع خشخشةَ سلاحٍ فقال: مَنْ هذا؟ فقالا جئنا نحرسُك. فنام عليه الصّلاةُ والسلام. فنزل قولُه تعالى:(١) ﴿ **والله يعصِمُك من الناس** ﴾ فأخرج رأسه وقال: انصرفوا أيُّها الناس فقد عصمني الله. فكان تأليبُ قريشٍ على النبي ﷺ، واستفزازُ أصحابه، والتحرّشُ بهم، وتهديدهم

---

(١) المائدة:٦٧

دافعاً له أن يردَّ عليهم، ويعترض طرقهم، ويلاحق قوافلهم، ويهدد تجارتَهم.

فكان إمّا يفعلُ ذلك بنفسه أو يرسلُ مَنْ ينوبُ عنه في ذلك، فإذا خرج بنفسِه على رأسِ الجند. سُمّيتْ غزوةً، وقع فيها قتالٌ أم لم يقعْ، وإذا خرج فيها أحدُ قادتِه سُمّيت سريةً. وسوف أذكرُ هذه الغزوات والسرايا مرتّبةً حسب وقوعِها.

١ـ سريّة حمزة إلى سيف البحر[١].

وقد وقعت في شهر رمضان السنة الأولى للهجرة، وقد أمّر رسول الله ﷺ عليها حمزةَ بن عبد المطلب رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحدٌ. وذلك ليعترض عِيراً من الشام، فبلغوا سيفَ البحر من ناحية العيص، فلقُوا أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فلمّا اصْطفُّوا للقتال حجز بينهم مجديُّ بنُ عمروٍ الجُهنيُّ ــ وكان حليفاً للفريقين لذلك لم يقع بينهم قتالٌ.وكان لواءُ حمزةَ أبيضَ، يحمله أبو مرثد كنازُ بنُ حصينٍ الغنويِّ.

٢ـ سرية عبيدة بن الحارث.

وتُسمى سريةَ رابغ.

وقد وقعت في شوال السنةَ الأُولى من الهجرة. قال ابن هشام:

---

(١) السِّيف: ساحل البحر

وهي أوّلُ رايةٍ عقدَها عليه الصلاةُ والسّلام

فقد بعث رسولُ الله ﷺ عبيدةَ بنَ الحارث بنِ المطلب في ستّين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحدٌ فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش فترامَوا بالنَّبل، ولم يقع قتالٌ، إلا أن سعدَ بنَ أبي وقاص قد رمي يومئذٍ بسهم، فكان أوّلَ سهمٍ رُمي به في الإسلام.

وقد انضمَّ من قريش إلى المسلمين المقدادُ بنُ عمرو البهرانيُّ. وعتبةُ بنُ غزوان المازني، وكانا مسلميْنِ خرجا مع المشركين ليكونَ ذلك وسيلةً للوصول إلى المسلمين.

وكان لواءُ هذه السريةِ أبيضَ يحمله مِسطحُ بن أثاثةَ بنِ المطّلب. وقد قال ابن هشام عن هاتين السريتين: إنهما أولُ رايةٍ عقدها النبيُّ ﷺ. ثم علّل ذلك بقوله: (وبعض الناس يقول: كانتْ رايةُ حمزةَ أولَ رايةٍ عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلكَ أن بعثَه وبعثَ عُبيدةَ كانا معاً، فشُبّهَ ذلك على الناس. وقد زعموا أن حمزةَ قد قال في ذلك شعراً يذكر فيه أن رأيته أوّلُ رايةٍ عقدها رسولُ الله ﷺ، ثم قال: فأما ما سمعْنا من أهل العلمِ عندنا. فعبيدةُ بنُ الحارث أوّلُ من عقّد له).

٣ــ سريّةُ سعدِ بنِ أبي وقّاص.

وتسمى سريّة الخرّار، موضعٌ بالقرب من الجحفة. وكانت في شهرِ ذي القِعدة السّنةَ الأولى من الهجرة.

بعث رسول الله ﷺ سعدَ بنَ أبي وقّاص في ثمانيةِ رهــطٍ من المهاجرين، وقيل في عشرين راكباً يعترِضون عيراً لقُريــشٍ فخرج حتى بلغَ الخرّار من أرض الحجاز، ثم رجع ولــم يلــقَ كيداً، وكانوا يكْمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الخــرّار، فوجدوا العيرَ قد مرّت. وكان لواءُ هذه السريّةِ أبيــضَ، يحملــه المقدادُ بنُ عمرو.

٤ــ غزوةُ ودّانَ. ويقال غزوةُ الأبْواء.

وكانت في شهرِ صفر. السنةَ الثانيةَ من الــهجرة. خــرج النبيُّ ﷺ بنفسِه بعد أن استخلفَ على المدينة سعدَ بــنَ عبــادة يعترِضُ عيراً لقريش حتى بلغ ودان، فلم يلقَ كيداً، فأقام بها بقيةَ صفر، وصدْراً من شهر ربيعِ الأولِ. وكــان لــواءُ النبــي ﷺ أبيضَ يحملُه حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال ابن هشام: هذه الغزوةُ أوّلُ غزواتِــه عليــه الصــلاة والسلام.

٥ــ غزوةُ بُواط.

وكانتْ في شهرِ ربيعِ الأول. السنةَ الثانيةَ من الهجرة.

خرج رسولُ الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أميّةُ بنُ خلف. وسار حتّى بلغ جبلَ بواط من ناحية جبل رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً.

وكان لواؤه ﷺ أبيضَ، يحمله سعدُ بنُ أبي وقاص.

٦ـ غزوة سفَوان

قال ابن هشام: وهي غزوةُ بدرِ الأُولى. وكانت في شهرِ ربيعِ الأوّل السنةَ الثانية للهجرة.

ذلك أن كُرزِ بنَ جابرٍ الفِهريَّ أغار على المدينة، فنهب المواشي فخرج رسولُ الله ﷺ في طلبه، حتى بلغ وادياً يقال له سفوانُ من ناحية بدرٍ. وفاتَهُ كُرزُ بن جابر، فرجع ﷺ إلى المدينة ولم يلق حرباً.

وكان لواؤه ﷺ أبيض، يحمله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

٧ـ غزوة ذي العُشَيرة.

في شهرِ جُمادى الأولى. السّنةَ الثانيةَ للهجرة. خرج رسولُ الله ﷺ يريد عيراً لقريش، ذاهبةً إلى الشام، فبلغ ذا العشيرةِ من بطن ينبُع فوجد العيرَ قد فاتّته. فأقام بذلك المكان

أياماً عقد فيها معاهدةً مع بني مُدلج وحلفائِهم من بني ضَمرةَ، ثـم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وكان لواؤه ﷺ أبيض، يحمله حمزةُ بن عبـــد المطلـــب رضي الله عنه.

٨ ـ سريّة عبد الله بنِ جحش.

وتسمى سريّةَ نخلة

وقد وقعت في شهرِ رجبِ السنةَ الثانية للهجرة، بعـــث رسولُ الله ﷺ، عبدَ الله بنَ جحش ومعه ثمانيةٌ من المـــهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحدٌ. ودفع إليه كتاباً وأمره أن لا ينظـــرَ فيه إلا بعدَ يوميْنِ من مسيرِه، فيَمضي لما أمره به، ولا يســتكره احداً من أصحابه.

فانطلق عبد الله وأصحابهُ لتنفيذ أمر الرسول ﷺ. وبعد يومين من المسير فتح عبد الله الكتابَ، فإذا فيه (فإذا نظرت فـي كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلةَ بين مكّة والطـائف. فـترصّدْ بها قريشاً وتعلّم لنا من أخبارهم). فقال سمعاً وطاعة. ثم بلّـــغ أصحابَه أمرّ الرسول ﷺ فقال لهم: (قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضيَ إلى نخلة، أرصدُ بها قريشاً، حتى آتيه منهـم بخـــبر وقد نهاني أن استكرهَ أحداً منكم. فمن كان يريد الشهادةَ ويرغـبُ

فيها فلينطلقْ، ومن كره ذلك فليرجعْ، فأمّا أنـــا فمــاضٍ لأمــر رسول الله ﷺ، فاستجابوا جميعاً لدعوته ومضَوْا معه لم يتخلّــفْ منهم أحدٌ، وفي الطريق أضلّ سعدُ بن أبي وقاص، وعتبــةُ بــنُ غزوانَ بعيراً لهما كانا يتعقبانِه، فتخلّفا فـــي طلبــه فأســرتْهما قريشٌ.

ومضى عبد الله وبقيةُ أصحابهُ، حتى نزلوا بنخلةَ، فمــرّتْ به عيرٌ لقريش تحمل تجارةً لهم، وفيها عمروُ بـــنُ الحضرمــيّ وعثمانُ وأخوه نوفلُ بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيســان. فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخرِ يومٍ من رجب، الشـــهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكْنا الشهرَ الحرام، وإن تركنــاهمُ الليلــةَ دخلوا الحرمَ، فليمتنِعُنّ منكم به ولئن قتلتموهم لتقتُلُنّهم في الشــهر الحرام، فتردّد القومُ، وهابوا الإقدامَ عليهم، وخافوا أن يقــاتلوهم، ولكنهم مالبثوا أن اقدموا على الاشتباك بهم، وأخذِ مامعهم فرمــى واقدُ بن عبد الله التميمي عَمرَو بنَ الحضرمـــي بســهم فقتلــه، وأسروا عثمانَ بنَ عبد الله، والحكمَ بن كيسان، وهرب نوفلُ بــنُ عبد الله. ورجع عبدُ الله بنُ جحشٍ وأصحابهُ بالعير والأســيريْنِ إلى المدينة، فلما رآهم رسول الله ﷺ أنكر فعلَهم وعاتبَهم فيــه وقال لهم: ماأمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام ووقف التصرّفَ فــي العير والأسيريْنِ حتى ينزلَ فيهم حكمٌ من السماء. وسُــقطَ فــي

أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، ووجد المشركون فيما حدث فرصةً للتشكيك في المسلمين واتهامهم بأنهم لايحترمون الشهرَ الحرام، وبأنهم لصوصٌ، وقُطّاع طرق. فقالوا: قد استحلّ محمدٌ وأصحابُهُ الشهرَ الحرام، وسفكوا فيه الدَّمَ، وأخذوا الأموال وأسروا الرجالَ.

فقال المسلمون ممن كان بمكة: إنّما أصابوا ماأصابوا في شعبانَ.

وأخذ اليهود يُشعلونَ نارَ الفتنةِ، ويثيرون الريبةَ في قلوب المقاتلين. فقالوا: عمرو بنُ الحضرمي قتله واقدُ بن عبد الله. عَمْرو، عمرتِ الحربُ، والحضرميّ، حَضرتَ الحربُ، وواقدٌ وقدت الحربُ.

فلما كثرت الأقاويل، وانتشرت الإشاعاتُ. نزل الوحي من السماء ليحسمَها ويسكتَ أصحابَها، ويبين أن ما فعله المشركون أكبرُ وأعظمُ مما ارتكبه المسلمون.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ **يسألونكَ عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌ عن سبيلِ الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِه منه أكبرُ عند الله والفتنة أكبر من القتل** ﴾.

فلما نزلت هذه الآية الكريمة، وفرج الله عن المسلمين ماكـــانوا فيه من الشَفَق[1]، وزال عن قلوبهم الحزن، وقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، ثم بعثتْ قريش في فداء عثمانَ والحكـــمِ، فقال رسول الله ﷺ: لافداءَ حتى يقدمَ صاحبانــا فإنــا نخشــاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتلْ صاحبيكم. فنزلوا على رأيه، وانقــادوا لشرطهِ وردوا إليه أسيريْه وردّ إليهم أسيريْهم.

قال ابن هشام: فأما الحكمُ بنُ كيسانَ فأسلمَ فحسنَ إسلامهُ، ثم قتل يوم بئرِ معونةَ شهيداً، وأما عثمانُ بنُ عبد الله فلَحق بمكّةَ فمات بها كافراً. أما عبد الله بن جحش وأصحابه، فمـــا تجلّـى عنهم ماكانوا فيه من الحزن، وانقشع عنهم ماأصابهم من الخوف حين نزل القرآنُ حتى طمِعوا في الأجر، وتطلّعوا إلى الثـــواب، فقالوا: يا رسول الله أنطمعُ أن تكون لنا غزوةٌ نُعطى فيها أجـــرَ المجاهدين؟ فأنزل اللهُ في شأنهم قولهُ تعالى في سورة البقـــرة[2]: **﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجَروا وجاهدوا في سبيل الله أولئـك يرجون رحمةَ الله والله غفور رحيم ﴾**.ففرحت بذلــك نفوســهم واطمـــأنت قلوبُهم، وغمـــرهم الله بفضله وأظلهم برحمته.

قال ابن هشام عن سرية عبدِ الله بن جحش: هــــي أولُ غنيمـــةٍ

---

(١) الشفق:الخوف (٢): الآية ٢١٨

غنمها المسلمون، وعمروُ بنُ الحضرميّ أولُ من قتله المسلمون، وعثمانُ بنُ عبد الله، والحكمُ بن كَيْسان أول من أسر المسلمون.

وقال ابن هشام: قال عبد الله بن جحش حيث قالت قريش: قد أحل محمَّدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرام وسفكوا فيه الدمَ، وأخذوا فيه المالَ! وأسروا فيه الرجال:

تعُدّون قتْلاً في الحرام عظيمةً — وأعظمُ منه لو يرَى الرشدَ راشدُ

صدودُكم عما يقول محمد — وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ

وإخراجُكم من مسجد الله أهلَه — لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ

فإنا وإن عيّرتمونا بقتله — وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ

سقيْنا من ابن الحضرمي رماحَنا — بنخلةَ لما أوقد الحربَ واقدُ

دماً وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا — ينازِعُه غُلّ من القِدّ عاند

القد: شرك يقطع من الجلد. وعاند: سائل بالدم لا ينقطع.

تلك هي الغزوات والسرايا قبل غزوة بدر، وقد رأيتَ أخا الإسلام أنها كانت صغيرةً لم يجرِ فيها قتالٌ ولا سلبُ أموال. إلا ما كان من كُرز بنِ جابر الفِهري الذي أغار على سرحِ المدينة فنهب بعضَ المواشي، وأفلتَ من قبضة المسلمين.

ثم أخذت الأحداث تتأزّم شيئاً فشيئاً. المسلمون متيقّظون يترصدون المشركين ليثبتوا لهم أنهم قادرون على مواجهتِهم في كل حين، وقد تجسّد ذلك في كل سريةٍ، خاصة في سرية عبد الله بن جحش، والمشركون يصابون بالذعر والهلع تارةً،

ويأخذهم الكبْر والصلَف تـارة أخـرى، ويزعجُـهم أن يكـون للمسلمين بلدٌ ودولة وشـعب، وبـدلَ أن يُفيقـوا عـن غيِّـهم، ويتحرروا من غُرورهم ويسلكوا طريقَ الموادعة والصُّلح كمـا فعلت جهينةُ وبنو ضمرة ـ ازدادُوا حقداً، واستشاطوا غضبـاً، وصمّموا على تنفيذ ماكانوا يهددون به المسلمين وإبادتِـهم فـي عُقر دارهم كما مر، وهذا هو التهّور الذي قادهم إلى بدرٍ حيـث أُصيبوا بهزيمةٍ مُنكرة أفقدتهم صوابهم، وحطّتْ مـن كرامتـهم، وعرّضتْهم للخزي والعار، وجعلتْهم أحاديثَ الناس وفيمـا يلـي نشرع بعون الله تعالى في ذكر تفاصيل غزوة بدر.

كانت الغزواتُ والسرايا الصغيرةُ الآنفـة الذكـر بمثابـة مقدّمةٍ لغزوةٍ كبيرة فاصلةٍ، فإغارةُ كُرزِ بنِ جابر على المدينـة، ونهبُه بعضَ المواشي في غزوة سفوان، وإفلاتُ عـير قريـشٍ الكبرى في غزوة العشيرة، وما حدث في سريّة نخلةَ، كانت كلُّها بمثابة تمهيدٍ لغزوة بدرٍ الكبرى.

ذلك أن عيراً لقريش أفلتتْ من النبي ﷺ في ذهابها مـن مكّةَ إلى الشام فلما حان موعدُ رجوعِها إلى مكةَ، بعث النبيُّ ﷺ طلحةَ بنَ عبيدِ الله وسعيدَ بنَ زيد لمراقبتها وأخذ خبرِها، فذهبـا إلى الحَوْراءِ ومكثا فيها حتى مرتْ بهما العيرُ يقودها أبو سـفيانَ ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريشٍ، فأسرعا إلى المدينـة، وأخبرا رسول الله ﷺ الذي ندبَ المسلمين وقال لهم: هذه عـيرُ

قريشٍ فيها أموالُهم فاخرجوا إليها لعلَ الله يُنفلُكُموها ـ يجعلُها لكم غنيمةَ ـ فخفَّ بعضهم وثقلُ بعضُهم، لأنهم لم يظنّوا أن رسولَ الله يلقى حرباً، أمّا أبو سفيانَ فقد كان يتحسّسُ الأخبار ويسأل من لقيَ من الركبانِ، تخوُّفاً على تجارتِه، وحرصاً على أمواله، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابَه لك ولعيرِك، فخاف المواجهةَ، وحذِرَ الأمر. فأستأجر ضمضمَ بنَ عمروٍ الغِفاريِّ أن يذهبَ إلى مكّةَ ليستنفِرَ أهلَها إلى أموالهم، ويخبرَهم أن محمداً قد عرضَ لها في أصحابه.

ومضى ضمضمُ بن عمروٍ سريعاً حتى وصل مكّةَ، فوقف ببطن الوادي على بعيره، وقد جدَعَ أنفَه، وحوّلَ رحلَه، وشقَّ قميصَه، وصرخ بأعلى صوتِه: يامعشرَ قريشٍ. اللطيمةَ، اللطيمةَ، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّدٌ في أصحابه، لاأرى أن تُدركوها، الغوثَ الغوثَ.

وقال ابنُ هشام: وقد رأتْ عاتكةُ بنتُ عبدِ المطلب، قبلَ قدومِ ضمضمِ مكةَ بثلاث ليالٍ، رؤيا أفزعتْها. فبعثتْ إلى أخيها العباسِ فقالت له: ياأخي، واللهِ لقد رأيت الليلةَ رؤيا أفظَعتْني، وتخوّفْتُ أن يدخلَ على قومِكَ منها شرٌّ ومصيبةٌ، فاكتم عني ماأحدثُك بهِ، فقال لها: وما رأيتِ؟ قالت رأيتُ راكباً أقبلَ على بعيرٍ له، وقفَ بالأبطحِ، ثم صرخ بأعلى صوتهِ ألا انفِروا

بالغُدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناسَ اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجدَ والناسُ يتبعونَه، فبينما هم حولَه مثَل به ــ قام به ــ بعيرُه على ظهرِ الكعبةِ، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يالغُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثَل به بعيرُه على رأس أبي قُبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرةً فأرسلَها، فأقبلتْ تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّتْ ــ تفتت ــ فما بقي بيتٌ من بيوتِ مكة، ولا دارٌ إلا دخلتْها منها فِلقةٌ قال العباس: والله إن هذه لرؤيا، وأنتِ فاكتُميها، ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس، فلقي الوليدَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعةَ، وكان له صديقاً فذكرها له، واستكتمَه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبةَ، ففشا الحديثُ بمكَّةَ، حتى تحدثتْ به قريشٌ في أنديتِها.

وغدا العباسُ يطوفُ بالبيت، فالتقى بأبي جهل فقال له: يأبا الفضل إذا فرغتَ من طوافِك فأقبلْ إلينا، فلما فرغ أقبلَ إليه فقال أبو جهلٍ: يابني عبدِ المطّلب، متى حدثتْ فيكم هذه النبيّةُ؟ قال: وماذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكةُ قال: وما رأتْ؟ قال: يابني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالُكم حتى تتنبأ نساؤُكم، قد زعمت عاتكةُ في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاثٍ فسنتربّص بكم هذه الثلاثَ، فإن يكُ حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمضِ الثلاثُ ولم يكنْ من ذلك شيٌ، نكتب عليكم كتاباً أنكم

أكذب أهل بيتٍ في العرب. قال العباس: فوالله ماكان مني إليه كبيرٌ، إلا أنّي جحدتُ ذلك، وأنكرتُ أن تكونَ رأت شيئاً.

وما إن أمسى المساءُ وأقبل الليل، وخيّم الظلامُ على بيوت مكّةَ حتى اجتمعتْ نساءُ بني عبدِ المطلب يلُمْن العباسَ، ويعاتِبْنه لسكوتِه على أبي جهل، فقُلن له: أقررتم لهذا الفاسق الخبيثِ أن يقعَ في رجالكم، ثم تناولَ النساءَ وأنت تسمعُ!. ثم لم يكن عندك غَيْرٌ ـ غَيْرَةٌ وإنكار ـ لشيء ممّا سمعتَ! قال: قد ـ والله ـ فعلتُ. ما كان مني إليه من كبيرٍ، وايمُ اللهِ لأتعرضَنَّ له، فإن عاد لأكفيكُنَّه، وفي الصباح غدا إلى المسجد وهو حديدٌ مُغضَبٌ، يرى أنه قد فاته منه أمرٌ يجب ان يدركَه، فلما رآه ودنا منه يتعرّضُ له، ليعودَ لبعض ماقال فينالَ منه، لكنّ أبا جهلٍ اشتدّ نحوَ البابِ، فقال العباس في نفسه: ماله لعنه الله، أكلُّ هذا فرقٌ مني أن أشاتَمه!

لكنّ العباسَ لم يدرِ أن أبا جهلٍ قد سمع صوتاً رنَّ في أذنه شغلَه وجعلَه يخرج مسرعاً.

صوتُ من هذا! إنّه صوتُ ضمضم بنِ عمروٍ، يصرخُ من بطنِ الوادي واقفاً على بعيره، قد جدع أنفَه، وحوّل رحلَه، وشق قميصَه وهو يقول: يامعشرَ قريشٍ، اللطيمةَ، اللطيمةَ، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّدٌ في أصحابه، لا أرى أن تُدركوها، الغوثَ الغوثَ.

فتجهّز الناس سراعاً، وقالوا: أيظنُّ محمّدٌ وأصحابُه أن تكونَ كعيرِ ابن الحضرميّ؟ كلا والله ليعلمَنَّ غيرَ ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارجٌ وإما باعثٌ مكانَه رجلاً. وأوعبتْ قريشٌ فلم يتخلّفْ من أشرافِها أحدٌ إلا أبا لهبٍ، فقد تخلّفَ وبعث مكانَه العاصيَ بن هشامِ بن المغيرة كان له عليه دينٌ أربعةُ آلافِ درهمٍ، لم يستطعْ أن يردّها إليه فخرج عنه، وتخلف أبو لهبٍ.

وكان أميّةُ بنُ خلف قد أجمعَ القعودَ، وأبى أن يذهبَ للقتالِ، وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه عقبةُ بن أبي مُعيط، وهو جالسٌ في المسجد فجعل يوبّخه ويؤنّبه على عزمه التخلفَ، وقال له: إنّما أنتَ من النساء قال : قبّحكَ اللهُ وقبّحَ ماجئتَ به، فلم يزلْ به حتى خرجَ مع الناس. ولما فَرَغوا من جهازِهم، وأجمعوا المسيرَ، ذكروا ماكان بينهم وبين بني بكرٍ من الحروب، فقالوا: إننا نخشى أن يأتونا من خلفِنا.

والحربُ التي كانت بين قريش وبين بكر: أن ولداً لحفصِ ابن الأخيفِ، خرج يبتغي ضالّةً، وكان غلاماً حسناً وضيئاً. فمرّ بعامرِ بن يزيدَ بنِ عامرِ بن الملوّح، وكان سيد بني بكر يومئذٍ، فقال من أنتَ ياغلامُ؟ قال أنا ابنٌ لحفص بن الأخيف القرشي. فلما ولّى الغلامُ، قال عامر: يابني بكرٍ مالكم في قريشٍ من دم؟ قالوا: بلى واللهِ، إنّ لنا فيهم لدماءً، قال: ماكان رجلٌ ليقتلَ هذا

الغلام برجْلِه إلا كان قد استوفى دمَه. فتبعه رجلٌ من بني بكر فقتلَه بدمٍ كان له في قريش. فأهمله قومُه فلم يطلبوا به.

فبينما أخوه مُكرز بنُ حفص بنُ الأخيف بمر الظهران، إذ وقع بصرهُ على عامر بن يزيدَ، فأقبل نحوه، وعامرٌ متوشّحٌ سيفه فعلاه مُكرز بسيفِه حتى قتلَه، ثم خاض بطنَه بسيفِه، ثم أتى به مكة، فعلّقه من الليل بأستارِ الكعبة، فلما أصبحتْ قريشٌ رأوْا سيفَ عامرِ بنِ يزيدَ معلقاً بأستار الكعبة فعرفوه، فقالوا: إن هذا لسيفُ عامرِ بنِ يزيدَ، عدا عليه مُكرزُ بنُ حفص فقتله، وتذكروا الدماءَ التي كانت بينهم وبين بني بكر.

فكاد ذلك يثْنيهم عن حربِهم ويمنعُهم من الخروج للقتال، فتبدّى لهم إبليسُ لعنه الله في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكٍ، وكان من أشراف بني بكر بنِ كنانةَ، فقال لهم: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانةُ من خلفكم بشيء تكرهونه وهكذا استطاع إبليسُ أن يُغويَهم ويوقعَهم في شباكِه، ويورِّطَهم في الخروج للقتال. وحين رأى الدائرةَ تدور عليهم تخلّى عنهم، وولّى هارباً، وتركهم عُرضةً لسيوفِ المسلمين. قال تعالى في سورة الأنفال[1]: ﴿ **وإذ زيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم وقال لاغالبَ لكم اليومَ من الناس وإنّي جارٌ لكم فلمّا تراءتِ الفئتانِ نكصَ على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى مالا ترون إني أخافُ اللهَ واللهُ شديدُ العقاب** ﴾.

(١) : الآية ٤٨

وقيل كان ذلك وقت المعركة حين رأى الملائكة تضرب رقــاب المشركين. وسوف يأتي تفصيلُه في حينه إن شاء الله تعالى.

أما رسولُ الله ﷺ فقد خرجَ من المدينة يوم الاثنين لثمانِ ليالٍ خلَوْن من شهر رمضان المبارك. وقيل كان خروجهُ يــوم السبت لثنتيْ عشرة ليلةً خلتْ من رمضــان، واستعمل علــى المدينة عمرَو بن أمّ مكتوم، وقيل: عبدَ الله بنَ أمّ مكتوم علــى الصلاة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكان أبيض وأمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مــع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، يقال لها العُقاب والأخــرى مع بعض الأنصار، لعله سعدُ بن معاذ رضي الله عنه.

وكان عددُ المسلمين يومئذ ثلاثمائةٍ وثلاثة عشر رجــلاً. يتبادلون الركوب على سبعين بعيراً. ولم يكــن معــهم ســوى فرسيْنِ: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقــداد بــن الأسـود رضي الله عنهما. أما جيشُ المشركين فقد كان تسعمائةٍ وخمسين مقاتلاً،معهم مائتا فرس وستُّمائة درع، وإبلٌ لايُعــرف عددُهــا بالضبط، فكانوا ينحرون منها يوماً عشراً ويوماً تسعاً.

ووردت الأخبارُ إلى رسول الله ﷺ أن القافلةَ قد نجــتْ، وأن قريشاً قد ساقتْ من مكة جيشاً جراراً لحمايتِــها، ففوجــئ المسلمون بهذا الخبر لأنهم لم يتوقّعوه، ولو توقّعوه لعملــوا لــه ألفَ حساب غير أن النبيَّ ﷺ استطاعَ بحكمته، وكياستِه وحســن

تدبيره أن يقنعهم بضرورة تعقُّب المشركينَ أينما كانوا، ومهما يكنْ بعدُ الشُّقة، وفداحة المشقة فتحمّسوا جميعاً لقبول التحدي ومواجهتِه مهما كلّفهم من جهدٍ وتضحياتٍ.

وأخذ رسول الله ﷺ يطبّقُ مبدأ الشورى الذي أُمِرَ به عملاً بقوله تعالى: **﴿ وشاورْهم في الأمر ﴾**.

وهكذا كان رسولُ اللهِ ﷺ، يطبق مبدأ الشورى حتى أصبحَ سِمةً له، وشارةً مميزةً لسلوكه. فكان إذا حزبَ المسلمين أمرٌ جمع أصحابَه ليناقشَهم، ويأخذَ آراءهم فيه حتى يتوصّلَ معهم إلى الحلّ العادل المنسجمِ مع روح التشريع الإسلامي، ليظهرَ مبدأُ الشورى واقعاً تطبيقاً في حياته ﷺ وحياةِ أصحابِه من بعدِه.

وهنا وفي هذا الموقف الحرج أخبرَ أصحابهَ عن قريش، وجعل يشاورُهم ويبحث معهم أمرَ مواجهةِ المشركين. فقام أبو بكرٍ الصدّيقُ رضي الله عنه، فقال وأحسن، ثم قام عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فقال وأحسنَ، ثم قام المقدادُ بنُ عمرٍو رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك اللهُ فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى: (اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا هنا قاعدون). ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثَك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد ــ موضع بناحيةِ اليمن ــ لجالدْنا معك من دونه،

حتى تبلغَه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. ثم أراد ﷺ أن يستجليَ موقفَ الأنصارِ لأنهم يمثلون أغلبيةَ الجيشِ الإسلامي، ولأنَّ ثقلَ المعركة سيدورُ على كواهلهم، كما أن نصوصَ بيعةِ العقبةِ لم تكن تلزِمُهم بالقتالِ خارجَ المدينة. لذلك كرّر ﷺ قولَه: أشيروا عليَّ أيُّها الناسُ، فتنبه لذلك سعدُ بنُ معاذ رضي الله عنه وهو قائدُ الأنصارِ،فقال: والله لكأنك تريدُنا يا رسول الله؟

قال: أجل، قال سعد: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا، على السمعِ والطاعة، فامضِ يا رسولَ الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضتَه لخضناه معك ما تخلّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقَى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ماتَقَرُّ به عينُك، فسرْ بنا على بركة الله. فسُرَّ رسولُ الله ﷺ وقال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ـ العير أو قريش ـ والله لكأني الآن أنظر إلى مصارعِ القوم.

ثم بعث عليَّ بنَ أبي طالب، والزبيرَ بن العوام، وسعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنهم في نفر من أصحابه إلى ماء بدرٍ يتحسّسون له أخبارَ قريش، فأصابوا رجلين يستقيان لقريش،

فسألوهما من هما؟ وما شأنُهما؟ فقالا: نحن سقاةُ قريشٍ، بعثونا نسقيهم من الماء، فكرهوا خبرَهما، ورجَوْا أن يكونا لأبي سفيان، فانهالوا عليهما ضرباً، فلمّا أوجعوهما قالا: نحن لأبي سُفيانَ، فتركوهما، والنبيُّ ﷺ قائمٌ يصلي، فلما فرغَ من صلاته أقبل عليهم، وقال: إذا صدقاكم ضربتمُوهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله، إنهما لقريش ثم نظر إليهما وقال لهما: أخبراني عن قريش، قالا: هم ـ والله ـ وراء هذا الكثيبِ الذي ترى بالعُدْوةِ القُصوى، فقال، كم القومُ؟ قالا: كثيرٌ، قال: ما عدتُهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كلَّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. فقال ﷺ لأصحابه: القومُ فيما بين التسعمائةِ والألفِ، ثم أقبل على الناس فقال: هذه مكّةُ قد ألقتْ إليكم أفلاذَ كبدِها.

في هذه الظروف الحرجةِ كان أبو سفيانَ متيقّظاً أشدَّ ما يكون الحذرُ والتيقّظ، يسألُ كلَّ مَنْ يلقاه في الطريق خوفاً على تجارته، حتى علم أن جيشَ المسلمين قريبٌ منه، فغيّر طريقَه، وسلك طريقَ الساحل. وبهذا يكون قد نجا بالقافلةِ، فأرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالَكم وأموالكم، فقد نجّاها اللهُ فارجِعوا. فقام الطاغيةُ أبو جهلٍ فقال بكبرياء وغطرسةٍ: والله لا نرجعُ حتى نردَ بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعمَ الطعامَ، ونسقى الخمرَ، وتعزف علينا القيانُ،

وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يــــهابوننا أبــداً بعدها، فامضوا. إنه الكبْر والبطَر والعلُــوّ فــي الأرض بغــير الحق، قال تعالى عنهم: [1] ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجُوا مــن ديارهم بطَراً ورئاءَ الناسِ ويصدّون عن ســبيلِ الله واللهُ بمــا يعملون محيطٌ** ﴾. وأقبلــوا بحدهــم وحديدهــم يُحــادّون الله ورسوله، على حميّةٍ وغضب وحنقٍ حتى نزلوا وراء كثيبٍ يقــع بالعُدوةِ القُصوى على حدود وادي بدر.

وسار رسول الله ﷺ بجيشه إلى الشــرق مــن جيــش المشركين ليحول بينهم وبين الاستيلاء على الماء.

وهنا قام الحُباب بن المنذر فقال: يارســول الله، أرأيــتَ هذا المنزلَ أمنزلاً أنزلكَه اللهُ ليس لنا أن نتقدمَّه ولا نتأخر عنــه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة؟ فقــال ﷺ: بــل هــو الــرأي والحرب والمكيدة. فقال يارسولَ الله، فإن هــذا ليــسَ بمــنزلٍ، فانهضْ بالناس حتى تأتيَ أدنى ماء من القوم، فننزلَه ثم نغــوّر ــ نخرب ــ ماوراءه من القُلُب ــ الآبار ــ ثم نبني عليه حوضــاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رســول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. ثم أمر بالقُلُب فغورت، وبنــى حوضــاً على القَليب الذي نزل عليه وملأه ماء.

---

(١) الأنفال: ٤٧

وكان المسلمون قبل هذا قد أُصيبوا بــالتعب والعطــش والنُّعاس والجنابة ووسوس لهم الشيطانُ: تدّعون أنكم أوليــاءُ الله وفيكم رسولُه، وكيف تقاتلون المشركين وهم على المــاء وأنتــم جُنُب! فامتنّ الله عليهم بالنومِ وأكسبهم وافراً من راحــة الجسـم والفكر والأعصاب، وأمطرتِ السّماءُ ماءً. فشربوا. وتطـــهّروا. وتزوّدوا وتلبدّتِ الأرضُ تحت أقدامهم، وسهّلتْ تحركاتِهم، فـــي حين أنها عاقت زحفَ المشركين، وعوّقت تحركاتِهم.

قال تعالى سورة الأنفال:[1] ﴿ **إذ يُغَشّيكم النعاسَ أمنــةً منه وينزلُ عليكم من السماء ماءً ليطهّركم به ويذهـــبَ عنكـم رجزَ الشيطانِ وليربطَ على قلوبكم ويثبتَ به الأقدام** ﴾.

ثم كان بعد ذلك ما ذكر من أمر القليب، وبناء الحــوض وملئه بالماء. وتقدّم سعدُ بنُ معاذٍ رضي الله عنه. وقال: يـــانبيَّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكونُ فيه، ونعدُّ عندك ركائبك، ثم نلقـى عدوّنا، فإن أعزنا اللهُ وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنــا، وإن كانت الأخرى، جلستَ على ركائبك فلحقت بمَــنْ وراءنــا، فلقد تخلف عنك أقوامٌ يا نبيَّ الله، ما نحن بأشدَّ لك حبــاً منــهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفــوا عنــك، يمنعــك الله بــهم، يُناصحونك، ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسولُ الله ﷺ خـيراً، ودعا له بخير، ثم بُنيَ له العريش، فكان فيه، ليُشرفَ منه على

---

(١) الأنفال: ١١

ساحة المعركة.

وأخذ رسول الله ﷺ يرقبُ تحركاتِ قريشٍ فلما رآهــم مقبلين من الوادي ــ قال: اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخُيلائــها ــ وفخرها، تحادُّك وتكذّبُ رسولَك، اللهم فنصرك الذي وعدْتنــي، اللهم أحِنْهم الغداة ــ أهلكهم ــ

وكان رسولُ الله ﷺ قد رأى عُتبةَ بنَ ربيعةَ في القــوم على جملٍ له أحمرَ ــ فقال: إن يكنْ في أحدٍ من القوم خيرٌ فعنــدَ صاحبِ الجملِ الأحمرِ، إن يطيعوه يرشُدوا.

أمّا قريشٌ فقد قضتْ تلك الليلةَ في معســكرِها بــالعُدوةِ القُصوى، وفي الصباح أقبل نفرٌ منهم إلى حــوض المســلمين. فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: دعُوهم، فما شرب أحدٌ منهم يومئــذٍ إلا قُتل، إلا ما كان من حكيمِ بن حزامٍ، فإنه لم يُقتلْ، ثم أســلمَ بعــد ذلك، فحسُن إسلامُه، فكان إذا اجتهد في يمينِهِ، قال: لا والــذي نجّاني من يوم بدر.

فلما اطمأن القوم، بعثوا عُمير بنَ وهب الجُمحيَّ ليأتيَــهمْ بخبرٍ عن قوة المسلمينَ، فدار عميرٌ بفرسه حولَ العســكر، ثــم رَجع إليهم فقال: ثلاثُمئةِ رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكــن أمهلوني حتى أنظرَ أللقومِ كمينٌ أو مددٌ، فضرب فــي الــوادي حتى أبعدَ، فلم يرَ شيئاً، فرجعَ إليهم فقال: مـــا وجــدتُ شــيئاً، ولكني قد رأيتُ يا معشرَ قريشٍ البلايا تحملُ المنايـــا، نواضــحَ

يثربَ تحمل الموتَ الناقعَ، قوم ليس معهم منعــــةٌ ولا ملجــأ إلا سيوفُهم والله ما أرى أن يَقتلَ رجلٌ منهم حتى يقتلَ رجلاً منكــــم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيشِ بعد ذلك؟ فروْا رأيكم. فلما سمع حكيمُ بنُ حزام ذلك، أتىَ عِتبة بن ربيعة، فقال: ياأبعــْـا الوليد إنّك كبيرُ قريشٍ وسيّدُها، المطاعُ فيها، هل لك إلى خــــير تُذكر به إلى آخر الدهر؟ قال وماذاك ياحكيم؟ قال ترجعُ بالنــاس، وتحمل أمرَ حليفِك عمروِ بنَ الحضرمي ــ الذي قُتل في ســـرية نخلة ــ قال: قد فعلتُ، أنت عليَّ بذلك،إنما هو حليفــــي، فعلـــيَّ عقلُهُ ــ ديته ــ وما أصيب من ماله، فأتِ ابنَ الحنظليةِ ــ أبـــا جهل ــ فإني لا أخشى أن يشجر أمرَ الناس غيرُه، ثم قام عتبـــةُ خطيباً، يحثُّ الناس على الكفِّ عن القتال، والعودةِ إلـــى مكـــة، فلما علم أبو جهل بأمر عتبةَ غضب وقـــال: انتفـــخَ ــ والله ــ سحْرهُ ــ كناية عن الجبن ــ حين رأى محمداً وأصحابَـــه كـــلا والله لا نرجعُ حتى يحكمَ الله بيننا وبين محمد.

ولما بلغ عتبةَ قولُ أبي جهل: انتفخ والله سَـــحْرهُ ــ قـــال عتبة: سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو.

ثم بعث أبو جهل إلى عامرِ بنِ الحضرميّ، أخي عمروٍ ــ قبل أن يتأثّر الناس برأي عتبةَ. فقال: هذا حليفُك ــ أي عتبــة ــ يريد أن يرجعَ بالناس وقد رأيتَ ثأرك بعينك، فقم فانشد خُفْرتــك، ومقتلَ أخيك، فقام عامر فكشَفَ على استِه، وصرخ: واعمــــراه،

فحميتِ الحربُ، وحقِبَ الناسُ ــ اشتدوا ــ واستوثقوا على مــا هم عليه من الشر، وأُفسد على النــاس الــرأيُ الــذي دعــاهم إليه عتبةُ.

وهكذا يكونُ أبُو جهل قد أشعل نارَ الحربِ، وأوقد لَظاهــا وقد أوشكت أن تَخْبوَ وتُطفأ.

وفي صبيحة يومِ الجمعةِ السابعَ عشرَ من شهرِ رمضــان المباركِ. وقعتْ ساعةُ الصفــر، وكــان الــهجوم مــن جــانب المشركين بهجوم الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجــلاً شرساً سيِّىءَ الخلق، فقال: أعاهدُ الله لأشربنّ مــن حوضــهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتن دونه فتصدى له أسدُ الله حمزةُ بــنُ عبــد المطلب رضي الله عنه، فضربه ضربةً قطع نصفَ ساقِه، فوقــع على ظهره تشخبُ رجلُه دماً، ثم حبا إلى الحوض يبغي اقتحامه، يريد أن يبرَّ بيمينه فأتبعه حمزةُ حتى قتله داخلَ الحوض. الأمــرُ الذي أثار غضبَ المشركين، وحميّتَهم، فاندفع منهم عتبةُ وشــيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بنُ عتبةَ يطلبون المبارزةَ فبرز لهم فتيةٌ مــن الأنصار. وهم عوفٌ ومعوِّذ ابنا الحارث، وعبدُ الله بن رواحــة رضي الله عنهم. فقال لهم عتبةُ بن ربيعة: منْ أنتم؟ فقالوا: رهطٌ من الأنصار، قال: مالنا بكم حاجةٌ. وقيل إنّ عتبةَ قال لهم: أكفاءٌ كرامٌ، إنما نريد قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قــم يــاعبيدةُ بــن الحارث، قم ياحمزة، قم ياعليُّ. فبارز عبيدةُ بنُ الحارث، عتبــةَ

ابنَ ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ بنَ ربيعة وبارز عليٌّ، الوليد بـــنَ عتبة. فأما حمزةُ وعليٌّ فلم يُمهلا صاحبَيْـــهما حتـــى قتلاهمـــا، واختلف عبيدةُ وعتبةُ بينهما ضربتَين، كلاهما أثبتَ صاحبَه، فكرّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافِهما على عتبةَ فأجهزا عليه، ثم احتملا عُبيـــدةَ إلى رسولِ الله ﷺ، الذي أفرشه قدمَه، ثم أسلم روحَـــه لله ربِّ العالمين.

ثم تزاحم الناسُ ودنا بعضُهم من بعض وحمي الوطيـــسُ، وتهاوتِ السيوفُ. وأخذ المشركون يُمطرون المسلمين بوابلٍ مـــن سهامهم، وتصايح المسلمون أحَدٌ. أحَد. فأمرهم الرســـول ﷺ أن يكسروا هجماتِ العدوّ، وهم يرابطون في مواقعِهم، وهو يقـــول لهم: إن اكتنفكم القومُ فانضَحوهم عنكم بالنبلِ، ولا تحملوا عليـــهم حتى تُؤذَنوا.

وأخذ ﷺ يناشد ربّه عز وجل، ويدعوه، ويطلـــبُ منـــه النصرِ وهو يقول: اللهم إن تهلكْ هذِه العصابةُ اليـــومَ لا تعبـــد. وأبو بكرٍ رضي الله عنه يقول له: يا نبيَّ الله: بعـــضَ مناشـــدتِك ربّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك. فقال: أبشرْ يا أبا بكر، أتـــاك نصرُ الله هذا جبريلُ آخذٌ بعِنانِ فرسٍ يقودُه، على ثناياه النَقْعُ.

ثم خرج ﷺ يحرّضُ الناسَ، ويشجّعُهم ويحثُّـــهم علــى القتال بعد أن أنزل الله عليه قولَه: (١) ﴿ **يا أيُّها النبيُّ حـــرّضِ المؤمنين على القتال إن يكنْ منكم عشرونَ صـــابرون يغلبــوا مائتيْنِ وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفــروا بأنـــهم قومٌ لايفقهون** ﴾.

---

(١) الأنفال:٦٥

صور من بطولات الصحابة

وقف النبي ﷺ يشجّعُ أصحابَه، ويلهبُ حماسَهم، ويعدُهم بنصر الله، ويقول لهم: والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لايقاتلُهم اليوم رجلٌ فيقتلُ صابراً محتسباً، مقبلاً غير مُدْبِر إلا أدخله اللهُ الجنةَ، فقال عُمير بنُ الحُمام، وفي يده تمراتٌ يأكلهُن: بَخٍ بَخٍ، أفما بيني وبين أن أدخلَ الجنةَ إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمراتِ من يده وأخذ سيفَه، فقاتل القومَ حتى قُتل.

وهذا عوفُ بنُ الحارثِ يقول: يا رسولَ الله، ما يضحِكُ الرّبَّ من عبدِه؟ أي يرضيه غاية الرضى قال: غمسُه يدَه في العدوّ حاسراً. فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفَه فقاتل القومَ حتى قُتل.

وهذا حمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ يتوسّطُ أرضَ المعركةِ مرتدياً لباسَ الحربِ وعلى صدرِه ريشةُ النَعامَ التي اعتاد أن يزينَ بها صدرَه في القتال وأخذ يصول ويجول كالجمل الأورقِ لا يرى رأساً إلا قطعه ولا يلقى مُشركاً إلا قتله، يقول أميّةُ بن خلفٍ حين أسره عبدُ الرحمنِ بنُ عوف: مَن الرجلُ منكم المعلّمُ بريشةِ النعام في صدرِه؟ فقال عبدُ الرحمن بنُ عوف: ذاك حمزةُ بنُ عبد المطلب قال أميّةَ بنُ خلف: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيلَ.

وهذا بلالُ بن رباح لم يكد يبصرُ أميّةَ بن خلف، مع عبد

الرحمنِ بن عوف حتى صاح قائلاً: رأسُ الكفر أميّةُ بن خلف لا نجوتُ إن نجا ورفع سيفَه ليقطفَ رأسَه لكنّ عبدَ الرحمن بنَ عوف صاح به أيْ بلالُ... إنه أسيري، فصاح بلالٌ بأعلى صوته: يا أنصارَ الله رأسُ الكفر ... أميّةُ بنُ خلف، لا نجوتُ إن نجا، فتقدّمتْ جماعةٌ من المسلمين وأحاطوا بأمية وابنِه وأهووْا بأسيافهم عليهما حتّى قطعوهما إرباً.

وهذا عكاشةُ بن محصن يقاتل بكل بأس وشجاعة حتّى انقطع سيفُه في يده، فأتى رسولَ الله ﷺ فأعطاه جِذْلاً من حطب، وقال له: قاتلْ بهذا يا عكاشةُ، فأخذه وهزّه بيده فعاد سيفاً صارماً طويلَ القامة، شديدَ المتْنِ، أبيضَ الحديدةِ، ومضى عكاشة يقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، ونصرهم نصراً مؤزّراً.

ولم يزل ذلك السيفُ الذي يسمّى (العونَ) مع عُكاشةَ يقاتل به، ويشهد المشاهد مع رسولِ الله ﷺ حتى قُتل رضي الله عنه في حروبِ الرّدة.

وهذا معاذُ بنُ عمرو بن الجموح يتصدّى لعدو الله أبي جهل، ويصمُدُ أمامه، ويضربه ضربةً قَطعتْ نصفَ ساقه.

وهذا معاذُ بنُ عفراءَ يقاتلُ وسطَ المعركةِ إذ مرّ بأبي جهلٍ وهو عقيرٌ، فضربه ضربةً أثبتَتْه ومضى يقاتلُ حتى قُتل.

في هذا الجوّ السّاخن، والمعركةُ على اشدّها عنيفةً قاسيةً

ضاريةً، السيوفُ تتوهّج والمنايا تتواثــبُ، والقتلــى يَسْـقطون، والمسلمون يتصايحون: أحدٌ ـ أحد. تقدّمَ النبيُّ ﷺ فأخذ حفنــة من الترابِ، فرمى بها وجوهَ المشركين وهــو يقــول: شــاهتِ الوجوهُ، فما من المشركين من أحدٍ إلا وأصاب عينيْهِ ومنخريْــهِ وفمَه ترابٌ من تلك القبضة.

وفي هذا يقول الله تعالى:[1] ﴿ فلم تقتلوهمْ ولكــنَّ اللــه قتلهم وما رميتَ إذ رميت ولكنّ اللهَ رمى وليُبلي المؤمنين منــه بلاءً حسناً ﴾.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابَه أن يحملــوا علــى المشــركين فتحمّسوا وضاعفوا جهودَهم وانطلقوا يقــاتلون بكــلِّ شــجاعةٍ واستبسالٍ وهم واثقون بنصرِ الله حتى استنفدوا جــهدَ أعدائــهم، وألحقوا بهم خسائرَ جسيمةً، وانتهت المعركةُ الخــالدةُ بهزيمــة المشركين بعد أن كُسرتْ شوكتُهم، وسقطت رايتُهم وهم يتهاوون أمام المسلمين، ويتساقطون تحت سيوفِهم الظامئة، ويفرّون مــن أرض المعركة بعد أن قُتل منهم سبعونَ صنديداً، وأُسر ســبعون آخرون ومَنْ بقي منهم فــرّ هارباً إلــى مكــة يجــرُّ أذيــالَ الخيبة، متوجاً بالخزي والعار.

---

(١) الأنفال: ١٧

تأييدُ اللهِ المؤمنينَ بالملائكة

لقد أمدّ اللهُ المؤمنين يومَ بدرٍ وغيرها بالملائكــة يُقــاتلون معهم،ويُكثرون عددهم، ويثبّتون قلوبَـــهم، ويُمدّونـــهم بأســباب التفوق والنصر. وهذا ثابتٌ في الكتاب والسنة.

قال تعالى في سورة آل عمران:(١) **﴿ إذ تقول للمؤمنيــن ألن يكفِيكم أن يُمدّكم ربُكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكــةِ مــنزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددْكــم ربُكــم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مسوّمين ﴾.**

وقال تعالى في سورة الأنفال:(٢) **﴿ إذ يُوحي ربُــك إلــى الملائكةِ أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلــوبِ الذيــن كفروا الرُّعبَ فاضربوا فوق الأعنــاقِ واضربــوا منــهم كــلَّ بنان ﴾.**

وقال في سورة الأنفال أيضاً:(٣) **﴿ إذ تَستغيثون ربّكــم فاستجاب لكم أني مُمدُكم بألفٍ مــن الملائكــةِ مردفيــن ﴾.** ــ متتابعين تأتي فرقة بعد فرقة. **﴿ ومـــا جعلــه اللهُ إلا بشــرى ولتطمئنَ به قلوبُكم وما النصرُ إلا من عنــدِ اللهِ إن اللهَ عزيــزٌ حكيم ﴾.**

---

(١) الآيتان:١٢٤–١٢٥؛ (٢) الآية:١٢ (٣) الآيتان:٩–١٠

وفي السنة النبوية المطهرة:

روى مسلمٌ عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال: (لمّا كان يومُ بدرٍ نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ وأصحابُه ثلاثُمائةٍ وتسعةَ عشرَ رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ، ثم مدّ يديْه، فجعل يهتفُ بربّه: (اللهمّ أنجزْ لي ما وعدتَني اللهم آتِ ما وعدتَني اللهم إن تهلكْ العصابةُ من أهل الإسلامِ لا تعبدْ في الأرض). فما زال يهتفُ بربه مادّاً يديْهِ مستقبلَ القبلةِ حتى سقط رداؤُه عن منْكِبيه. فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمَه من ورائه وقال يا نبي الله، كفاك مناشدتُك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمدُّكم بألفٍ من الملائكةِ مردِفين** ﴾. فأمده الله بالملائكة).

قال أبو زُمَيل: فحدّثني ابنُ عباس قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثر رجلٍ من المشركين أمامه إذ سمع ضربةً بالسّوط فوقَه وصوت الفارس يقول أقدمْ حيزومُ، فنظر إلى المشرك أمامَه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهُه كضربة السوط فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاريُّ فحدّث بذلك رسولَ الله ﷺ فقال: ﴿ صدقتَ ذلك من مددِ السماء الثالثةِ، فقتَلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين ﴾.

وروى البخاريُّ عن ابن عباسٍ قال: قال النبي ﷺ يوم بدرٍ: ﴿ هذا جبريلُ آخذٌ برأس فرسِه عليه أداةُ الحربِ ﴾.

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعملُ الأقداحَ. أنحتُها في حُجرة زمزم، فو اللهِ إني لجالسٌ فيها أنحتُ أقداحي، وعندي أمُّ الفضل جالسة وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليْه بشرٍّ، حتى جلس على طُنُب الحجرة ـ طرفها ـ فبينما هو جالسٌ إذ قال الناس: هذا أبو سفيانَ بنُ الحارث بنِ عبد المطلب قد قدِم، فقال أبو لهب: هلمّ إليّ، فعندك لعمري الخبرُ، فجلس إليه والناسُ قيام عليه فقال: يا ابنَ أخي، أخبِرني كيف كان أمرُ الناس؟ قال: واللهِ ما هو إلا أن لقينا القومَ فمنحْناهم أكتافَنا يقودوننا كيف شاءوا، و يأسروننا كيف شاءوا، وايمُ الله مع ذلك مالُمتُ الناسَ لقينا رجالاً بيضاً، على خيل بُلقٍ بين السماء والأرض، والله ما تُليق ـ تبقي ـ شيئاً، ولا يقوم لها شيءٌ.

قال أبو رافع: فرفعتُ طُنُبَ الحجرةِ بيدي، ثم قلتُ: تلك واللهِ الملائكةُ، فرفع أبو لهب يدَه فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً.

وذكر القرطبي في تفسيره عن سهلِ بن حُنيف رضي الله عنه قال: لقد رأيتُنا يوم بدر وإن أحدَنا يشير بسيفِه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يصلَ إليه.

وعن الربيع بن أنس قال: كان الناسُ يومَ بـــدر يعرفــون قتلَى الملائكة ممن قتلوهم بضربٍ فوقَ الأعناق وعلـــى البَنــان مثلِ سمةِ النار قد أُحرق به.

قال القرطبي: وقال بعضُهم: إن الملائكةَ كـــانوا يقــاتلون وكانت علامةُ ضربِهم في الكفـــار ظـــاهرةً، لأن كـلَّ موضـــع أصابتْ ضربتُهم اشتعلت النارُ في ذلك الموضع.

وقال: ثبت عن سعد بن أبي وقّاص أنه قال: رأيتُ عــــن يمينِ رسول الله ﷺ وعن يساره يومَ بدر رجلَيْنِ عليهما ثيـــابٌ بيض يقاتلان عليه أشدَّ قتال، ما رأيتُهما قبل ولا بعد.

وعن ابن عباس قال: أمدَّ اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ والمؤمنيـــن بألفٍ من الملائكة، فكان جبريلُ عليه السلام في خمسمائةٍ مـــن الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مــن الملائكــة مجنبــة. تفسير القرطبي.

وجاء في سيرة ابن هشام عن أبي أُسيدٍ مالكِ بن ربيعـــة، وكان شهد بدراً قال بعد أن ذهب بصرُه: لو كنتُ اليـــومَ ببـــدرٍ ومعي بصري لأريتُكم الشِّعبَ الذي خرجت منه الملائكةُ.

وعن أبي داودَ المازنيِّ، وكان شهدَ بدراً قال: إني لأتبـــع رجلاً من المشركين يومَ بدر لأضربَه، إذ وقع رأسُـــه قبــل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتلَه غيري.

وعن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكةِ يوم بدرٍ عمائمَ بيضاً قد أرسلوها على ظهورهم، ويومَ حُنين عمائمَ حمراً.

وعن علي بن أبي طالب قال: العمائمُ تيجانُ العرب. وكانت سيما الملائكة يومَ بدر عمائمَ بيضاً قد أرخَوْها على ظهورهم، إلا جبريلَ فإنه كانت عليه عِمامةٌ صفراءُ.

وعن ابن عباس قال: ولم تقاتلِ الملائكةُ في يومٍ سوى بدرٍ من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون. سيرة ابن هشام.

وهذا الإمداد والدّعم والنصرُ من الله عز وجل غيرُ محدودٍ بزمانٍ أو مكان.

فكلما استوفى المؤمنون شروطَ الإمداد والدعم والنصر أمدّهم اللهُ بها. وهي: الصبرُ، والتقوى، والتزامُ أوامرِ اللهِ، والأخذُ التامَّ بالأسباب التي شرعها اللهُ عزَّ وجل لقتال أعدائه.

وقد صبر المؤمنون يومَ بدر، واتّقوا اللهَ، فأمدّهم اللهُ بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ كما وعدهم.

قال القرطبي في تفسيره: نزولُ الملائكةِ سببٌ من أسباب النصر لايحتاج إليه الربُّ تعالى، فهو الناصر بسببٍ وبغير سبب

(١) ﴿ **إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون** ﴾. لكــن أخبر بذلك ليمتثلَ الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلــت من قبل(٢) ﴿ ولن تجدَ لسنّةِ الله تبديــلاً ﴾ ولا يقــدحُ ذلــك فــي التوكّل ... والله أعلم.

---

(١) يس:٨٢ (٢) الأحزاب:٦٢

طرح قتلى المشركين في القَليب

بعد انتهاء المعركة أمر النبيُّ ﷺ بحفرِ بئرٍ كبيرةٍ لطرح المشركين، إلا ما كان من أُميّةَ بنِ خلف فإنه انتفخ في درعِه فلم يستطعِ المسلمون أن يحرّكوه مخافةَ أن يتفرّق لحمُه فتركوه كما هو وألقَوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة، وجُمع القتلى فأُلقوا في القليب ـ البئر ـ ثم وقف النبيُّ ﷺ فوق حافةِ القليب وناداهم، قائلاً: ياأهلَ القليب، هل وجدتُم ما وعدكم ربُّكم حقاً؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقاً، فقال له أصحابُه: يا رسولَ الله، أتُكلّم قوماً موتى؟ فقال لهم ﷺ: ﴿ لقد علِمُوا أنّ ما وعدهم ربهم حقاً ﴾.

وفي روايةٍ: فقال المسلمون: يارسول الله، أتنادي قوماً قد جيّفوا؟ قال ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لايستطيعونَ أن يُجيبوني.

وفي رواية أنّ رسولَ الله ﷺ قال: يا أهلَ القليب، بئس عشيرةُ النبيِّ كنتم لنبيكم، كذّبتُموني وصدّقني الناسُ، وأخرجتموني وآواني الناسُ، وقاتلتموني ونصرني الناسُ، ثم قال: هل وجدتُم ما وعدكم ربُّكم حقاً؟

وهذا دليل على أن الميتَ يسمعُ ويرى من يخاطبُه، لكنه

لا يستطيعُ أن يردّ عليه.

وحين أخذ المسلمون جثمانَ عتبةَ بن ربيعة يجرّونه ليُلقوه في القليب، نظر النبي في وجه أبي حذيفةَ بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغيّر وجهه، فقال : يا أبا حذيفةَ لعلّك قد دخلك في شأن أبيك شيءٌ؟ فقال: لا، والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعِه، ولكنني كنت أعرفُ من أبي رأياً وحِلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديَه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما أصابه، وذكرتُ ماماتَ عليه من الكفر، أحزنني ذلك، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخيرٍ، وقال له خيراً.

موقفُ الإسلام من الأسرى

بعد أن رجع المسلمونَ المنتصرون إلى المدينة المنــــوَّرة يحملون الغنائمَ ويقودون الأسرى، ويشكرون الله عز وجل علـــى نصره و تأييدِه وقف النبيُّ ﷺ كعادته يستشيرُ أصحابَه ويناقشهم بشأنِ الأسرى وما هم فاعلون بهم؟ فقال: ما تَرونَ فـــي هـــؤلاء الأُسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسولَ الله قومُك وأهلك استبقْهم لعـــلَّ الله أن يتوبَ عليهم. وقال عمرُ: كذَّبوك وأخرجـــوكَ وقـــاتلوك، قدِّمْهم فاضربْ أعناقَهم. وقال عبدُ الله بنُ رواحة: انظـــرْ واديـــاً كثير الحطب فأضرمْه عليهم. فقال العباسُ وكان بين الأســـرى: قُطعت رحمُك، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس: يـأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحــــة. فقـــال النبيُّ ﷺ: إن الله ليُلينُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكون ألْيَـــن مـــن اللبن، ويشتدُّ قلوبَ رجالٍ حتى تكون أشدَّ من الحجارة، مثلُك يـــا أبا بكر مثلُ إبراهيم عليه السلام إذ قال:(١) ﴿ فمن تبعني فإنـــه منّي ومن عصاني فإنّك غفورٌ رحيم ﴾. ومثلك يا أبا بكر مثـــلُ عيسى عليه السلام إذ قال:(٢) ﴿ إن تعذّبْهم فإنـــهم عبـــادُك وإن تغفرْ لهم فإنّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾.

---

(١) إبراهيم:٣٦ (٢) المائدة: ١١٨

ومثلك ياعمرُ كمثل نوحٍ عليه السلام إذ قـــال:[1] ﴿ ربِّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً ﴾. ومثلك يا عمر مثـــل موسى عليه السلام إذ قال:[2] ﴿ ربنا اطمـــسْ علـــى أموالـــهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يُؤمنوا حتى يَرَوْا العذاب الأليم ﴾.

ثم اتجه عليه السلام نحو الأسرى وقال لهم: أنتمْ عالةٌ فـلا ينفلتَنَّ أحدٌ إلا بفداء أو ضربةِ عنق. فأنزل الله عز وجل قولـه:[3] **﴿ ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتـــى يُثخـنَ فـي الأرض تريدون عرضَ الدنيا واللهُ يريد الآخرةَ والله عزيـزٌ حكيـم ﴾.** فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿ إن كاد لَيصيبُنـــا فـــي خـــلاف ابـنِ الخطاب عذابٌ، ولو نزل عذابٌ ما أفلت إلا عمرُ... ﴾

وبعد هذا العتاب خيّر اللهُ عـــزّ وجـلّ رسـولَه بأنـــه إذا وضعتِ الحرب أوزارَها له أن يمُنّ وله أن يأخذ الفـداءَ (فإمـــا مناً بعدُ وإما فداءً).

قال القرطبي في تفسيره: قال ابن عباس رضي الله عنـــه: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلمـــا كـثروا واشـتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا في الأسارى: (فإما مناً بعد وإما فداء).

أما موقفُ الإسلام بالنسبة لمعاملتهم قبل إصـــدارِ الحكـم

---

(١) نوح:٢٦ (٢) يونس:٨٨

(٣) الأنفال:٦٧

فيهم، فإنه على غايةٍ من الرقـــة البالغـــة، والرحمـــة الزائـــدة، والمعاملةِ الطيبة فقـــال النبـــي ﷺ للمســـلمين: ﴿ اســـتوصُوا بالأسارى خيراً ﴾.

قال أبو عزيز أخو مصعبِ بنِ عمير، وكان أســـيراً يـــوم بدر: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكـــانوا إذا قدّموا غداءهم وعَشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلـــوا التمـــر ــ وقد كان الخبزُ أحبَّ وأشهى إلى القوم من التمر لكثرتِـــه وقلـــةِ الخُبز ــ لوصيةِ رسول الله ﷺ إيّاهم بنا، ما تقعُ في يـــدِ رجُـــلٍ منهم كسرةُ خبزٍ إلا نفحَني بها.قال: فأستحي فأردّها على أحدهم، فيردّها عليَّ ما يمسُّها.

ورُوِي أنه لما كانت أُسارى بدر وفيهم العبـــاسُ، فســـهر النبيُّ ﷺ ليلتَه. فقال له بعضُ أصحابه: ما يُسهرك يا نبـــيَّ الله؟ قال: أنينُ العباس. فقام رجلٌ من القـــوم فـــأرخى مـــن وثاقِـــه. فقال رسول الله ﷺ: ما لـــي لا أســـمع أنيـــن العبـــاسِ؟ فقـــال رجلٌ من القوم: إني أرخيتُ مـــن وثاقـــه شـــيئاً فقـــال: فـــافعلْ ذلك بالأسارى كلِّهم.

هذا موقفُ الإسلام من الأسرى، وهذه معاملتُه لـــهم. أدبٌ عظيمٌ يتأدّبُ به المسلمون، وخُلُقٌ كريمٌ يغمرُ به حتى الأعـــداء، ورحمةٌ واسعة تشمل الجميع.

ذكر أشهر من أسر يوم بدر

١ـ العباسُ بنُ عبدِ المطلب أسره أبو اليَسَر كعبُ بنُ عمرو، وكان رجلاً قصيراً، وكان العباسُ ضخماً طويلاً، فلما جاء به أبو اليسَر إلى النبيِّ ﷺ قال له: ﴿ لقد أعانكَ عليه ملَكٌ ﴾.

وقد اختُلف في وقت إسلام العبّاس، فقيل أسلم قبل بدر، ولذلك قال النبي ﷺ: ﴿ من لقيَ العباسَ فلا يقتلْه فإنه أُخرج كرهاً ﴾.

وعن ابن عباس أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال يوم بدر ﴿ إن أُناساً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقيَ أبا البختريِّ فلا يقتلْه، ومن لقي العباسَ فلا يقتلْه فإنه إنّما أخرج مُستَكرهاً ﴾.

وقيل إنه أسلم حين أُسر يوم بدر ـ وقيل عام خيبر ـ واللهُ أعلمْ وكان العباسُ أكثرَ الأُسارى فداءً، لأنه كان مُوسِراً، فقد افتدى نفسه بمائةِ أُوقيّةٍ ذهباً. روى البخاريُّ عن أنسِ بنِ مالك، أنَ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ائذنْ لنا فلنتركْ لابنِ أختِنا عباسٍ فداءه فقال: لا والله لا تذرون دِرْهما.

وقـد قيـل : إن فداءَ كـلِّ واحـدٍ من الأُسـارى كـان أربعين أوقيَّةً، إلاّ العباسَ قال عنه النبيُّ ﷺ: ﴿ أضعِفوا الفـداءَ على العباس ﴾.

وجاء عن ابن اسحاقَ أن العباسَ قال: يارسولَ الله، قـد كنتُ مسلماً فقال رسولُ الله ﷺ: اللهُ أعلمُ بإسلامك فإن يكنْ كما تقول فالله يَجْزِيك بذلك، فأما ظاهرُ أمرِك فكان علينا فافدِ نفسَك وابنَيْ أخويْك نوفلَ بنَ الحارث بن عبد المطلب وعقيلَ بنَ أبي طالبٍ وحليفَك عتبةَ بن عمرو أخا بني الحارث بن فـهر، قـال: ماذاك عندي يا رسول الله. قال: فأين المالُ الذي دفنتَه أنـت وأمُّ الفضل فقلت لها إن أُصبت في سفري هذا فـهذا المـال لبَنـيّ الفضلِ وعبدِ الله وقُثَم؟ فقال: يا رسولَ الله، إنـي لأعلـمُ أنّـك رسـولُ الله، إن هـذا الشـيْء مـا علمـه غـيري وغـيرُ أم الفضل، فاحسُب لي يا رسولَ الله ما أصبتم مني عشرين أوقيـةً من مال كان معي، فقال رسولُ الله ﷺ: لا، ذاك شيءٌ أعطانـا اللهُ منك، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفَه، وأنـزل الله فيـه: (١)

﴿ يا أيُّها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللهُ فـي قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أُخذ منكم ويغفرْ لكم والله غفـورٌ رحيمٌ ﴾.

---

(١) الأنفال: ٧٠

وفي صحيح مسلم أنه لما قدم على النبي ﷺ مالٌ من البحرين قال له العباس: إني فاديتُ نفسي وفاديتُ عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: خذْ، فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحملَه....

وفي غير الصحيح. فقال العباس: وهذا خيرٌ ممّا أُخذ مني وأنا بعدُ أرجو أن يغفرَ الله لي، قال العباس: وأعطاني زمزمَ وما أُحب أن لي بها جميعَ أموالِ أهل مكةَ...... تفسير القرطبي

٢ــ أبو العاص بنُ الربيع زوجُ زينب بنتِ رسولِ الله ﷺ، أسره خراش بنُ الصمّة، وقيل: أسره عبد الله بن جبير وحين بعثَ أهلُ مكة في فداء أسراهم بعثت زينبُ بنتُ رسولِ الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمالٍ، وبعثت فيه بقلادةٍ لها وكانت لأمّها خديجةَ رضي الله عنها، وقد قدّمتْها خديجةُ هديةً لزينبَ يوم زفافِها على أبي العاص، فلما رأى النبي ﷺ القلادةَ عرفها ورقَّ لها رِقّةً شديدةً وقال: ﴿ إن رأيتمْ أن تُطلقوا لها أسيرَها وتردوا عليها الذي لها ﴾. فقالوا: نعمْ. فأطلق النبي ﷺ سراحَه وأخذ عليه عهداً أن يُخليَ سبيلَ زينبَ، ويبعثَ بها إلى المدينة فلما قدم أبو العاص مكةَ قال لها تجهّزي فالْحقي بأبيك، وخرج معها كنانةُ بنْ الربيع أخو أبي العاص. فسمع أهلُ مكة بخروجِها، فتبعها هبارُ بن الأسود ونافعُ بنْ عبد القيس الفهريُّ، وما إن وصل إليها هبار حتى أخذ يروّعُها بالرمح وهي في

هودجِها، فتصدّى له كنانةُ بن الربيع ونثر نبلَه،وأخذ قوسَه وقال: واللهِ لايدنو مني رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهماً، وأقبل أبو سفيان في أشرافِ قريش فقال: يا هذا، أمسكْ عنا نبلَك حتى نكلّمك، فتوقف كنانةُ، فدنا منه أبو سفيان فقال: إنك لم تصنعْ شيئاً، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس، وقد عرفتَ مصيبتَنا التي أصابتنا ببدرٍ فتظن العربُ وتتحدث أن هذا وهنٌ منا وضعفٌ خروجُك إليه بابنته على رؤوس الناس من بين أظهرنا. ارجعْ بالمرأة فأقمْ بها أياماً، ثم سلّها سلاً رفيقاً في الليل فألحقها بأبيها، فلعمري ما لنا بحبسِها عن أبيها من حاجةٍ، وما لنا في ذلك الآن من ثؤرةٍ ــ ثأر ــ فيما أصاب منا..... ففعل كنانةُ ما طلب منه أبو سفيان، فلما مرَّ يومان أو ثلاثةٌ سلّها كنانةُ فانطلقَ حتى قدمَ بها على رسول الله ﷺ. فأقامتْ عنده بالمدينة، وأقام أبو العاص بمكةَ حيث فرّق بينهما الإسلامُ حتى إذا كان قبيل الفتح انتدبه رجالٌ من قريش للتجارةِ وقد أمنوه على أموالهم، وكان رجلاً مأموناً، فلمّا فرغ من تجارته في الشام ورجعَ إلى مكة انقضّتْ عليه سريةٌ لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما كان الليلُ دخل على زينبَ فاستجار بها، فأجارته، فلمّا خرج رسولُ الله ﷺ إلى صلاة الصبح صرختْ زينبُ وقالت: أيّها الناسُ إني قد أجرت أبا العاص بنَ الربيع، فلما سلّم رسولُ الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيّها

الناس هل سمعتم ما سمعتُ؟ قالوا: نعم، قال: أما والذي نفسُ محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يُجير على المسلمين أدناهم، ثم دخل على ابنتِه، فقال: أيْ بنيّةُ أكرمي مثواه، ولا يخلُصَنَّ إليك، فإنك لا تَحِلِّين له.

ثم بعثَ إلى أفراد السرية فقال لهم: إنّ هذا الرجلَ منا حيث قد علمتُم وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتَردُّوا عليه الذي له، فإنا نُحبُّ ذلك وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم، فأنتمْ أحقُّ به فقالوا: يا رسولَ الله، بل نردُّه عليه، فأخذه أبو العاص إلى مكّةَ وردّه إلى أصحابه، ثم قال: يا معشرَ قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مالٌ لم يأخذْه؟ قالوا: لا فجزاكَ الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدُه ورسوله، والله مامنعني من الإسلام عنده إلا تخوّفُ أن تظنوا أني إنما أردت أن آكُلَ أموالَكم، فلمّا أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمتُ، ثم خرج من مكةَ حتى قدم على رسول الله ﷺ فردَّ عليه زينبَ بنكاحٍ جديدٍ، لأن الإسلام قد كان فرّقَ بينهما بنص قولِه تعالى: ﴿ **لاهُنّ حِلٌّ لهم ولاهم يحلّون لهن** ﴾.

٣ـ عقبة بن أبي مُعَيط. وكان من أكثر المشركين إيذاءً للمسلمين. وقد أسره عبد الله بن سلمة.

٤ـ النضرُ بن الحارث، وكان لا يقل عن عقبة بالشّراسة وسوءِ الخلق، وفي الطريق أمر النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب أن يقتل النضرَ فقتله في مكان يقال له ـ الصفراءُ ـ وحين تلقت قُتيلةُ أختُ النضرِ ـ أو بنتُه وهو الأصح ـ نبأ مقتلِه بكتْ عليه بكاءً شديداً، وقالت ابياتاً من الشعر تضمّنت حزنَها و تألُّمها عليه، جاء فيها:

هل يسمعَني النضرُ إن ناديتهُ ... أم كيف يسمعُ ميتٌ لا ينطِقُ
أمحمدٌ يا خَير ضنء كريمةٍ ... في قومها والفحلُ فحلٌ مُعرق
ما كان ضرك لو مننتَ وربّما ... منَ الفتى وهو المغيظُ المُحَنَقُ
أو كنت قابلَ فديةٍ فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما يُنفق
فالنضرأقربُ من أسرت قرابةً ... وأحقُهم إن كان عَتَق يُعتق
ظلّت سيوفُ بني أبيه تنوشهُ ... للـه أرحامٌ هناك تُشقق
صبراً يقادُ إلى المنية متعباً ... رسفَ المقيّدِ وهو عانٍ موثق

الضنء: الأصل ـ المعرق: الكريم. المعنى: أمحمّدُ يا خيرَ أصلٍ وأكرمَ نسبٍ. ما ضرّكَ لو مننتَ على النضر فعفوتَ عنه وأطلقتَ سراحَه، وأخذت فداءه أغلى وأثمن ما فدي به حسيبٌ وشريفٌ.

يُروى أن رسول الله ﷺ حين سمعَ هذه الأبياتَ، قال لو بلغني هذا قبل قتِله لمننتُ عليه.

فما أعظمَ هذه الأخلاقَ! وما أوسعَ هذا القلبَ! وما أرحبَ هذا الصدرَ! وما أشمل هذه الرحمة! صلى عليك الله يا سيّدي يا رسولَ الله يا من بعثك الله رحمة للعالمين، يا من كنت رحمةً للكبير والصغير، وللمؤمن والكافر، وللبَرّ والفاجر، يامن قلت: إنما أنا رحمةٌ مهداة . وقال فيك رب العزة عز وجل.

﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾.

وتابع النبي ﷺ وأصحابُه مسيرَهم يقودون الأسرى حتى بلغوا موضعاً يقال له عرقُ الظبية أمر النبيُّ ﷺ عاصمَ بن ثابت أن يقتلَ عقبةَ بنَ أبي مُعيط، فقال عقبة لرسول الله ﷺ: فمن للصّبيةِ يا محمّدُ؟ قال: النارُ، فلما دنا منه عاصم بن ثابت ليقتلَه قال: يا معشرَ قريشٍ علامَ أُقتلُ من بين مَن ههنا؟ قال على عداوتك اللهَ ورسولَه ثم دنا منه فقتلَه. وقيل الذي قتله عليُّ ابن أبي طالب أيضاً.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: (كان هذا الرجلانِ من شر عبادِ الله وأكثرِهم كفراً وعناداً وبغياً وحسداً وهجاءً للإسلام وأهلِه لعنهما الله وقد فعل).

٥ـ أبو عزيز زرارةُ بن عمير أخو مصعب بن عمير. أسره أبو اليسر.

وكان أبو عزيز صاحبَ لواءِ المشركين ببدر بعد النضر

ابن الحارث، وقد مرّ به أخوه مصعبٌ وأبو اليسر يأسره، فقال مصعب: شدَّ يديك به، فإن أمّه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك، فقال له أبو عزيز: ياأخي، هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك، فسألتْ أمُّه عن أغلى ما فُدي به قُرشيّ، فقيل لها: أربعةُ آلاف درهمٍ، فبعثت بأربعةِ آلاف درهم ففدته بها...... وقد أسلم أبو عزيز هذا وله سماعٌ وصحبةٌ. كما في الإصابة والاستيعاب.

٦ــ أبو وَداعةَ بنُ ضبيرة السهميّ، فقال رسولُ الله ﷺ: إنّ له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال، وكأنّكم به قد جاءكم في طلبِ فداءِ أبيه، فلما قالت قريش لا تعجلُوا بفداء أسراكم، لا يأربُ عليكم محمدٌ وأصحابُه، قال ابنُه المطّلبُ بن أبي وداعة: صدقْتم، لا تعجلوا. وانسلّ من الليل فقدِمِ المدينةَ، ففدى أباه بأربعةِ آلافِ درهم.

٧ــ سهيل بن عمرو.أسره مالكُ بنُ الدخشم وقال مفتخراً:

أسرتُ سُهيلاً فلا أبتغي ... أسيراً به من جميع الأمم
وخندفُ تعلم أن الفتى ... فتاها سهيل إذا يُظّلم
ضربت بذي الشفر حتى انثنى ... وأكرهت نفسي على ذي العلم

الأعلم: المشقوق الشفة السفلى، وقد كان سهيلٌ كذلك. وقد قال عمرُ بن الخطاب لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، دعْني أنزع

ثنيتي سهيلِ بنِ عمرو، ويدلع لسانُه ـ يخرج ـ فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبياً.

رُوي أن رسول الله ﷺ قال لعمر: ﴿ إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمّه ﴾. وصدق رسول الله ﷺ فقد أسلم سهيلُ بن عمرو وكان له موقفٌ مشرف بعد وفاةِ رسول الله و ارتدّمن ارتدّ من العرب، ونجم النفاقُ بالمدينة وغيرِها، فقام خطيباً وثبت الناس على دينهم.

وقد جاء مكرزُ بن حفص فحبس نفسَه مكان سهيلِ ريثما يأتيهم بفدائه، قال مكرز في هذا مفتخراً:

فديت بأذواد ثمانٍ سبا فتىً ينال الصميمَ غرمُها لا المواليا
رهنت يدي والمالُ أيسر من يدي عليّ ولكني خشيت المخازيا
وقلتُ سهيلٌ خيرُنا فاذهبوا به لأبنائنا حتى نُديرَ الأمانيا

٨ ـ عمرو بنُ أبي سفيان. أسره عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقيل لأبيه أبي سفيان بن حرب: افدِ عمراً ابنَك، فقال: أيجتمع على دمي ومالي! قتلوا حنظلة، وأفدي عمراً! دعوه في أيديهم يُمسكوه ما بدا لهم.

وكان سعدُ بنُ النعمان بنِ أكال قد خرج معتمراً، ولم يكن يعتقدُ أن أحداً يعترض طريقه أو ينال منه سوءاً وقد خرج

معتمراً ولكن أبا سفيان فعل ذلك ولم يرعَ حرمةَ المعتمرِ، فعـــدا عليه بمكة فحبسه بابنه عمرو. وأنشأ يقول:

أرهط بن أكّال أجيبوا دعــاءه ... تعاقدتم لاتسلموا السيّد الكهــلا

فإنّ بنـــي عمـــرو لئامٌ أذلــةٌ ... لئن لم يكفّوا عن أسيرِهم الكبّلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

لو كان سعدٌ يوم مكّة مُطلَقاً ــ ... لأكثر فيكم قبل أن يُؤسَر القتلا

بغضبٍ حُسامٍ أو بصفراءَ نبعةٍ ... تحن إذا ما أُنبضتْ تحفز النبلا

العضب: السيف، الصفراء: القوس، النبع: شـــجر تصنـــع منه القسي، وتحن: أي بصوت وترها، والإنباـــاض: أن يحـــرك وتر القوس ويُعدّ. تحفز النبل: تقذف به وترميه.

فأتى بنو عمرو بنِ عوف وهم ذوو ســـعدِ بـــن النعمـــان فطلبوا من رسولِ الله ﷺ أن يُعطيَهم عمرَو بـــنَ أبـــي ســـفيان فيكفّوا به صاحبَهم سعدَ بن النعمان ففعل رسول الله ﷺ، فبعثـــوا به إلى أبي سفيان الذي أطلق سبيلَ سعدٍ.

وأبو سفيان شخصيةٌ معروفةٌ وقد أسلم يوم الفتح، أما ابنُـــه عمرٌو المذكور فلم أجد له إسلاماً.

٩ـ أبو عزّة. واسمه عمرُو بنُ عبد الله بن عثمـــان بـــن أهيب، فكلّم رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، لقد عرفتَ ماليَ مِنْ مال، وإني لذو حاجة، وذو عيال، فامنُنْ عليّ، فمنّ عليـــه،

وأخذ عليه عهداً، ألا يظاهرَ عليه أحداً. فقال أبو عـــزة يمـــدح رسول الله ﷺ، ويذكرُ فضله:

مَن مبلــغ عنـــي الرسول محمــداً ... بأنك حــقٌ والمليك حميــد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى ... عليك من الله العظيم شهيــدُ
وأنــت امــرؤ بُوِّئت فينــا مبــاءةً ... لها درجاتٌ سهلةٌ وصــعودُ
فإنــك مــن حــاربتَــه لمحــارَب ... شقيٌّ ومــن سالمتَه لســعيدُ
ولكــن إذا ذكّــرت بــدراً وأهــلــه ... تأوّبُ مابي حسرةٌ وقعـــود

ولكن أبــا عــزة هذا نقضَ ما كان عاهــد عليه رســول الله ﷺ وشارك يوم أحد في قتال المسلمين فوقع أسيراً أيضـــاً، فطلب من النبي ﷺ أن يمنّ عليه أيضاً. فقال لــــه النبـــي ﴿ لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعتُ محمداً مرتين ﴾ ثم أمر به فضربت عنقه وفيه أيضاً قال النبي ﷺ ﴿ لا يُلدغ المؤمنُ مـــن جُحرٍ مرتين ﴾.

١٠ــ المطلب بن حنطب بن الحارث: أسره أبـــو أيـــوب الأنصاري خالد بن زيد، وكان المطلب لبعض بني الحارث بـــن الخزرج فتُرك في أيديهم حتى خلّوا سبيله.

١١ــ صيفيٌّ بن أبي رفاعة بن عابد: تـــرك فـــي أيـــدي أصحابه، فلم يأتِ أحدٌ في فدائه، فأخذ عليه أصحابُـــه عـــهداً أن يبعث إليهم بفدائه وخلّوا سبيلَه، فلم يفِ لهم بشيء.

١٢ــ وهب بن عمير بن وهب: أسره رفاعةُ بن رافع.

منّ عليه رسولُ الله ﷺ حين جاء أبوه عميرُ بن وهب إلى رسول الله ﷺ مُسلماً فقال النبي لأصحابه: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيرَه. فكان نتيجة هذا العفو الكريم، والخلق العظيم، والصفح الجميل أن دخل معظم الأسرى في الإسلام عن رضىً وقناعة، فكانوا أهلَه وخاصتَه والمدافعين عنه، ورافعي رايته... وهذا مايفسر بعدَ نظر الصديق رضي الله عنه، وتمحيصَه للأمور ويكشف عن تألق حكمته وتوقد بصيرته، وإرهاف حسه، وشفافية روحِه حين أشار على رسول الله ﷺ بأخذ الفدية، وإطلاق سراحِ الأسرى حيث قال: يا نبيّ الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفديةَ فيكون ما أخذناه منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُداً فكان الأمر ــ كما أشار أبو بكر.

وهذا الرأيُ للصديق رضي الله عنه أيّده الله عز وجل بل زاده عليه حينما خير رسول الله ﷺ فيما بعد بأنه إذا وَضعتِ الحربُ أوزارَها له أن يمنَّ وله أن يأخذ الفداء. (فإما مناً بعدُ وإما فداء).

ذكْرُ أشهرِ مَن قُتل من المشْركين

وهمْ أئمّةُ الكفر، وأربابُ الضّلال، ودعاةُ الشرّ الذين آذوْا النبيَّ ﷺ ، وتآمروا على قتله ووأْدِ دعوتهِ وتفنّنوا في تعذيبِه وتعذيب أصحابِه منهم.

١ـ عدُوّ الله: أبو جهل بنُ هشام. وقد مر معنا أنّ معاذَ ابنَ عمرو بن الجموح تصدىّ له أثناء المعركة فضربه ضربةً قطعت نصفَ ساقِه ثم مرّ به معوّذُ بنُ عفراءَ فضربه ضربةً أثبتَتْه.

وبعد انتهاء المعركة أمر النبيَّ ﷺ أن يُلتمس أبو جهل في القتلى، فمر به عبدُ الله بن مسعود فوجده بآخرِ رمقٍ فوضع رجليْهِ على عُنُقه وقال له: هل أخزاك الله ياعدوَّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني، أعارٌ على رجلٍ قتلتموه؟ أخبرْني لمن الدائرةُ اليوم؟ قال: لله ورسولِه، ثم قال لابن مسعود وكان قد وضع رجلَه على عنقه: لقد ارتقيتَ مرتقىً صعباً يا رُوَيْعيَ الغنم، ثم اختزّ ابنُ مسعود رأسَه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يارسول الله هذا رأسُ عدوِّ الله أبي جهل فقال ﷺ : آللهِ الذي

لاإله إلا هو؟ فردّدها ثلاثاً، ثم قال: اللهُ أكبر، الحمـــد لله الــذي صدق وعده، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحده، انطلقْ أرنيــه، فلما رآه، قال: هذا فرعونُ هذه الأمة.

٢ـ الأسود بنُ عبد الأسدِ المخزوميُّ: وهو أخو أبي سلمة رضي الله عنه عبدِ الله بن عبد الأسد الصّحابيّ الجليل.

والأسودُ هذا، قيل: إنه أولُ من يأخذ كتابه بشـــمالِه يــوم القيامةِ لأنه بادر النبيَّ ﷺ بالحرب يومَ بدر.

وقد روي أنه يمدُّ يدَه ليأخذَ كتابَه بيمينه فيجذبُه ملكٌ فيخلعُ يدَه فيأخذهُ بشِماله من وراء ظهرِه، لعنه الله وجعل جهنم مثواه.

٣ـ عتبةُ بن ربيعة.

٤ـ شيبةُ بن ربيعة، وهو أخو عتبةَ.

٥ـ الوليدُ بنُ عتبةَ، وهؤلاء الثلاثة قُتلوا في المبارزة مــع عليّ وحمزةَ وعبيدةَ بنِ الحارث.

٦ـ أميّةُ بن خلف، وهو الذي كان يعذّب بلالاً.

٧ـ عقبةُ بن أبي مُعيط، وكان خليلاً لأمية بنِ خلف.

٨ـ النضرُ بن الحارث: كان من شياطين قريش، وممــن يؤذي رسولَ الله ﷺ ، وينصبُ له العــداوةُ. وكــان قــد تعلّـم أحاديثَ ملوكِ الفرس، وأحاديثَ رُستمَ واسفنديار بســبب كــثرة

أسفاره واجتماعِه بأهل المشرق. وكان متكبراً صلِفاً لدرجة الغرور، وكان يقول: سأُنزل مثل ما أنزل اللهُ.

وكان إذا جلس رسولُ الله ﷺ مجلساً يذكّر المسلمين بالله، ويخوّفهم أن يصيبهم ما أصاب منْ قبلهم من الأمم. جلس النضرُ مكانَ رسولِ الله ﷺ ، وقال للقوم: أنا — والله — يامعشرَ قريش أحسنُ حديثاً منه، فهلمّ إليّ فأنا أُحدثكم أحسنَ من حديثه.

وفيه أنزل اللهُ عز وجلّ قولَه:(١) ﴿ **إذا تتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوّلين** ﴾.

٩— أبو البختريّ بنُ هشام: واسمه العاص بنُ هشام، وهذا لم يكن مبغضاً لرسول الله ﷺ ، ولم يتعرّضْ لأحد من الصحابة بسوء. بل كانت له مواقفُ إنسانيةٌ شهمةٌ فكان لا يؤذي النبيَّ ﷺ ، ولا يبلغُه عنه شيءٌ يكرهه، ولقد لعب دوراً كبيراً وهاماً في نقض الصحيفة الظالمةِ التي كَتبتْ قريش على بني هاشم وبني المطلب، لذلك لم أذكرْه مع أبي جهل وعتبةَ وعقبة وأمية وغيرِهم، وهو الذي قال عنه النبيُّ ﷺ أثناءَ المعركةِ

---

(١) القلم: ١٥

﴿ ومن لقي أبا البختريّ بنَ هشام بنِ الحارث بنِ أسد فـلا يقتلْه ومن لقي العباسَ بن عبد المطلب عمّ رسـول الله ﷺ فـلا يقتلْه ﴾.

فلقيه المجذَّرَ بنُ زياد البلويُّ، فقال له: إن رسـول الله ﷺ قـد نهانا عن قتلِك، قال أبو البختريّ: وزميلي، وهو الذي كان راكبـاً معه على بعيرٍ ـ فقال المجذَر: لا والله، مانحن بتاركي زميلِـك، مأمرنا رسولُ الله ﷺ إلاّ بك وحدك فقال: لا والله، إذن لأموتَـنّ أنا وهو جميعاً، لاتتحدّثُ عني نساءُ مكة أنـي تركـت زميلـي حرِصاً على الحياة. ثم اقتتلا فقتله المجذَر فأتى رسـول الله ﷺ يعتذرُ إليه فقال: والذي بعثك بالحقّ لقد جهدتُ عليه أن يستأسـرَ فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلَني فقاتلته فقتلتهُ فلم يراجعْه الرسـولُ ﷺ في ذلك ولم يلُمْه.

١٠ـ عليّ بنُ أمية بن خلف: قُتل مع أبيه حين لاحقـهما بلالُ بن رباح، وقد مر معنا ذلك. وعلي بنُ أميةَ هذا واحدٌ مـن الفتية الذين نزل فيهم قولُه تعالى:(١) ﴿ إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسِهم قالوا فيمَ كنتُم قالوا كنا مسـتضْعفين فـي الأرض قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فـأولئك مـأواهم

(١) الآية: ٩٧

جهنم وساءت مصيراً ﴾.النساء

وبقية الفتية المذكورين في الآية هم:

١١ــ الحارثُ بن زمعةَ بنِ الأسود بن عبد المطلب بن أسد.

١٢ــ أبو قيس بنُ الفاكه بن المغيرة.

١٣ــ أبو قيس بنُ الوليد بن المغيرة.

١٤ــ العاصُ بنُ منبه بن الحجاج.

وهؤلاء كانوا قد أسلموا بمكة فلما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم، ومنعوهم من الهجرة، وفتنوهم عن دينِهم ثم خرجوا مع قومِهم إلى بدرٍ فقُتلوا جميعاً.

١٥ــ نوفلُ بنُ خويلد بن أسد، ويُقال له ابنُ العدوية، وهو الذي قَرن أبا بكر الصديقَ، وطلحةَ بن عبيد الله حين اسلما في حبل، فكانا يُسمَّيان القرينين لذلك، ونوفلٌ هذا كان من شياطين قريش.

١٦ــ العاصُ بن هشام بن المغيرة. أخو أبي جهل بن هشام.

هؤلاء هم أشهرُ من قُتل من فرسان قريش يوم بدر وقـــد جاءوا بحدّهم وحديدهم ليطفئوا نورِ الله بأفواههم، وخرجوا مـــن ديارهم بطراً ورئاءَ الناس ويصدون عن ســـبيل الله فأكبّـــهم اللهُ بغيظهم، ورد سهامَهم إلـــى نحورهـــم، وأراح المســـلمين مـــن شرورهم، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، لتكون رايةُ التوحيد خفاقةً منتصرة سائرة فوق هامـــات الدنيـــا حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

ذِكْر مَن استُشهد مِن المُسلمين

إذا كان المشركون قد خرجوا إلى بدرٍ بطراً ورئاءَ النـــاس ويصدّون عن سبيل الله مزهوّين بالكِبْر والغـــرور والغطرســـةِ. فإن المسلمين كانوا على العكس من ذلك تماماً. خرجوا بعـــد أن عاهدوا قائدَهم المصطفى ﷺ على خـــوضِ البحـــر، وتحـــدّي الأهوال وتذليل الصعاب على الرغم من قلـــة عددِهـــم وتفـــوُّق عدوهم. خرجوا طلباً للشهادة ونيلِ رضـــوان الله عـــزّ وجـــل. فكانت النتيجةُ أن نصرهم اللهُ نصراً مبينـــاً. ومكّـــن لـــهم فـــي الأرض، وكسر شَوْكةَ عدوِّهـــم وحطـــم كبريـــاءَهم. وجعلـــهم ينسحبون من أرض المعركةِ متوّجين بالخزيِ والعار بعد أن قُتل منهم سبعون فارساً وأُسر سبعون آخرون. في حين لم يقتلْ مـــن المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً ثمانيةٌ من الأنصار وستةٌ مـــن المهاجرين وهم:

١ــ مهجع مولى عمرَ بن الخطاب: رُمي بسهم فقُتل فكـان أوّل شهيدٍ من المسلمين.

٢ــ حارثةُ بنُ سُراقةَ: أصيبَ بسهمٍ وهـــو يَشْـــرب مـــن الحوض فقُتل.

٤ــ عــبيدةُ بن الحارث: وقد مرّ أنه قُتل في مبارزتِه مع عتبةَ بنِ ربيعة.

٥ــ٦ عوف ومعّوذُ ابنا الحارث: وهما ابنا عفراء.

٧ــ عميــرُ بنُ أبي وقاص: أخو سعدِ بن ابي وقاص. وقد استَصْــغره النــبيُّ صـــلى الله عليه السلام يومَ بدر فردّه، فبكى عميــر، فــلما رأى النبي عليه السلام بكاءه أذن له في الخروج، فقُتل وهو ابنُ ستَ عشرةَ سنةً.

٨ــ ذو الشــمالينِ: واسمه عميرُ بن عبد عمرو بن نضلة، قــدم أبوه مكة فحالف عبدَ الحارث بنَ زهرة وزوّجه ابنتَه نعمى فولــدت له عميــراً ذا الشــمالين، ولقب بذي الشّمالين لأنه كان أعسرَ، ثم شهد بدراً وقُتل فيها شهيداً. قتلَهُ أسامةُ الجشمي.

٩ــ يــزيدُ بنُ الحارث: ويقال ابن فسحم وهي أمُّه، وهو الــذي آخى رســول الله صــلى الله عــليه وسلم بينه وبين ذي الشمالين. قتله طعيمةُ ابن عدي.

١٠ــ رافع بن المعلّى، قتله عكرمة بن أبي جهل.

١١ــ ســعدُ بــنُ خيثمة: كان له من قبل المعركة موقفٌ طــريف، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنهض أصــحابَه إلى عير قريش قال له أبوه خيثمة: إنه لابدّ لأحدنا أن يقيــمَ فآثرني بالخروج وأقمْ أنتَ مع نسائنا، فأبى سعدٌ وقال: لو

كــان غيــرَ الجنة آثرتك به إني لأرجو الشهادةَ في وجهي هذا. فاســتَهما فخــرج سهمُ سعدٍ الذي ذهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فقُتل شهيداً.

١٢ــ صــفوانُ بن بيضاءَ: والبيضاء أمُّه، وهو أخو سهلٍ وسهيلٍ ابني وهب. قتله طعيمةُ بن عدي.

١٣ــ عــاقلُ بن البكير: قيل كان اسمه غافلاً فغيّره النبيُّ عــليه السلام وأسماه عاقلاً، ويُروى أنّه أولُ من بايع النبيَّ عليه السلام في دار الأرقم فكان من السابقين الأولين.

١٤ــ مبشّــر بنُ عبد المنذر بن زنبر: خرج مع أخيه أبي لبابةَ إلى بدر فقُتل فيها شهيداً.

فليســمعْ شــبابُ اليــوم من طلاب العبث، وعشاق اللهو، ورواد الخمــور، إلى شبابٍ خرجوا من بيوتِهم وأحضانِ آبائهم للقــتال ونيــل الشــهادة لا لرحلةٍ، ولا لنزهةٍ. خرجوا ليرسُموا صــوراً رائعــة في التضحية والفداءِ، وليُعطوا دروساً خالدة في المجــد والإبــاء مــنهم شابٌ في عمر الورد يرى فارقَ السن، وفــارقَ الجسم بينه وبين غيره من المجاهدين، ثم لايمنعُه ذلك من أن يكون كفؤاً لهم في مطالب الشهادة وغايات المجد.

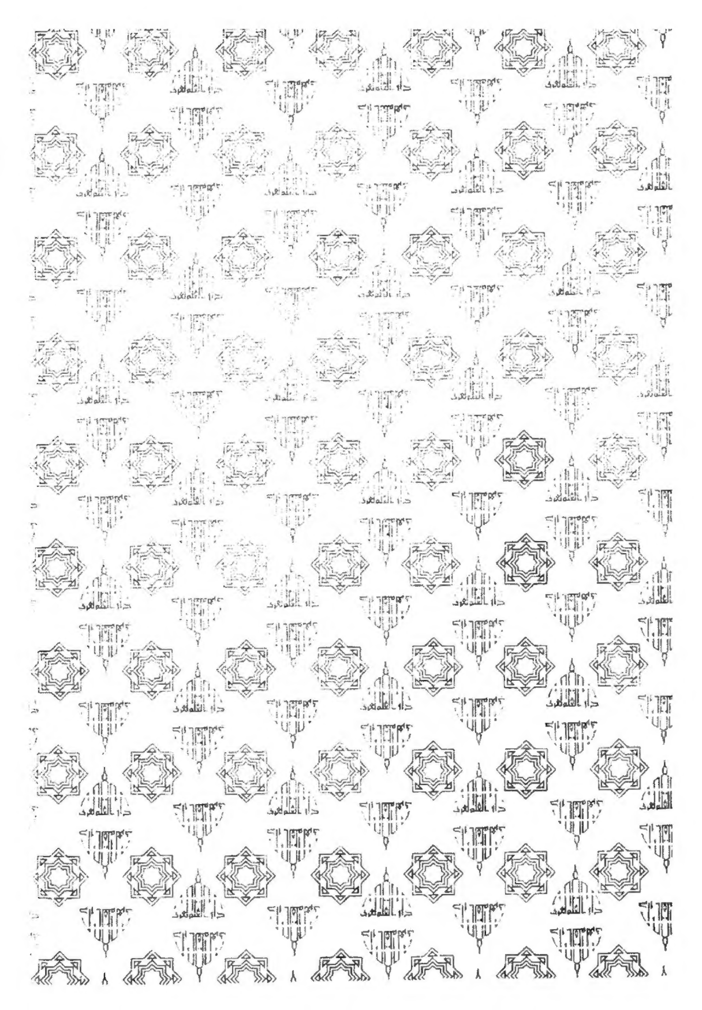
وحيــن ردّه النــبي صلى الله عليه وسلم لصغرِ سنه بكى فأشفق لبكائه فأجازَه، فقاتل حتى قُتل ونال الشهادة.

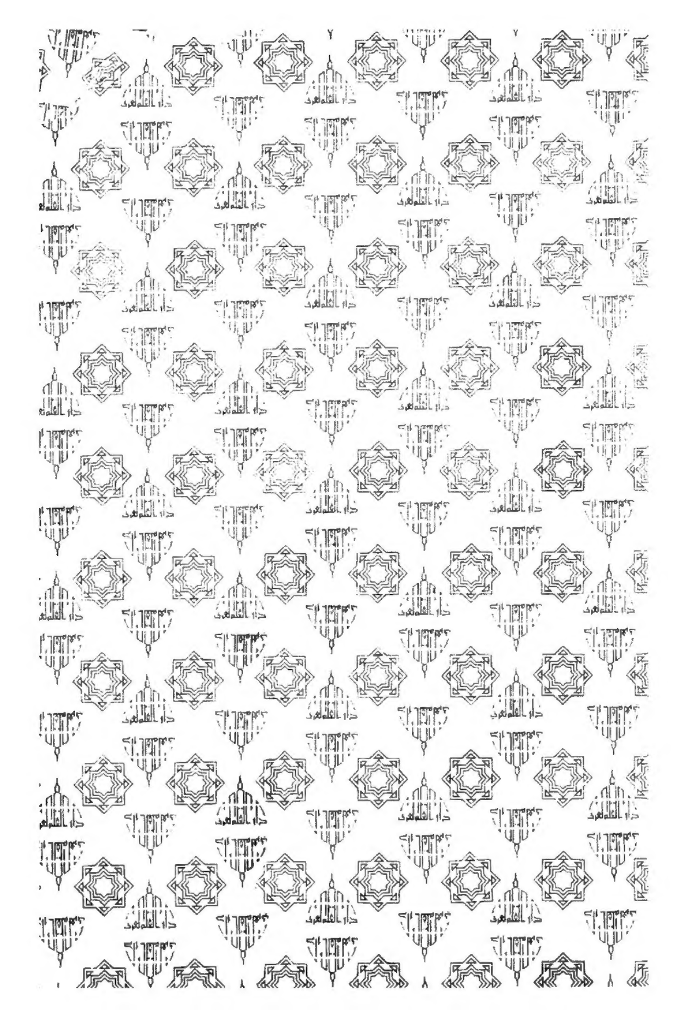
وليس هذا المشهدُ البطولي هو الأولَ وليس هو الأخيرَ بل إنـــه واحد من كثير من المشاهد الرائعة التي يزخر بها تاريخُنا الإســـلامي العـــريق، ونفخـــر بهـــا ونرفع رؤوسَنا عزةً وإباء وشموخاً ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

و إلى اللقاء مع مشاهدَ بطولية أخرى من غزوة أحد.

تمت بعون الله

الفهرس





معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

١ - معركةُ ذي قـار
٢ - معاركةُ بـدْر
٣ - معركةُ أحُـد
٤ - معركةُ الخَنْدقِ
٥ - معركةُ حُنَيْنٍ
٦ - معركةُ اليمَامةِ
٧ - معركةُ اليرموكِ
٨ - معركةُ الجِسْرِ
٩ - معركةُ القَادسيّةِ
١٠ - معركةُ فتحِ المدائنِ
١١ - معركةُ نهاوندْ
١٢ - معركةُ فتحِ الأندلس
١٣ - معركةُ بَلاطِ الشّهداءِ
١٤ - معركةُ وادي الحِجارَةِ
١٥ - معركةُ العموريّةَ
١٦ - معركةُ الزّلاّقةِ
١٧ - معركةُ حِطينَ
١٨ - معركةُ بيتِ المقْدِسِ
١٩ - معركةُ عكّا
٢٠ - معركةُ عَيْنِ جالوت

لم تكن الحربُ لدى العربِ المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردّ العدوان ، ولدرءِ الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دون إنتشارها. وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ بالن[illegible] غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى إلى [illegible] نفوس الأبناءحبّ التضحيةِ والفداء ، وحبّ ابائهم الذين بذلوا دماءَهم [illegible] شامخةً لايدنّسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر



I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

